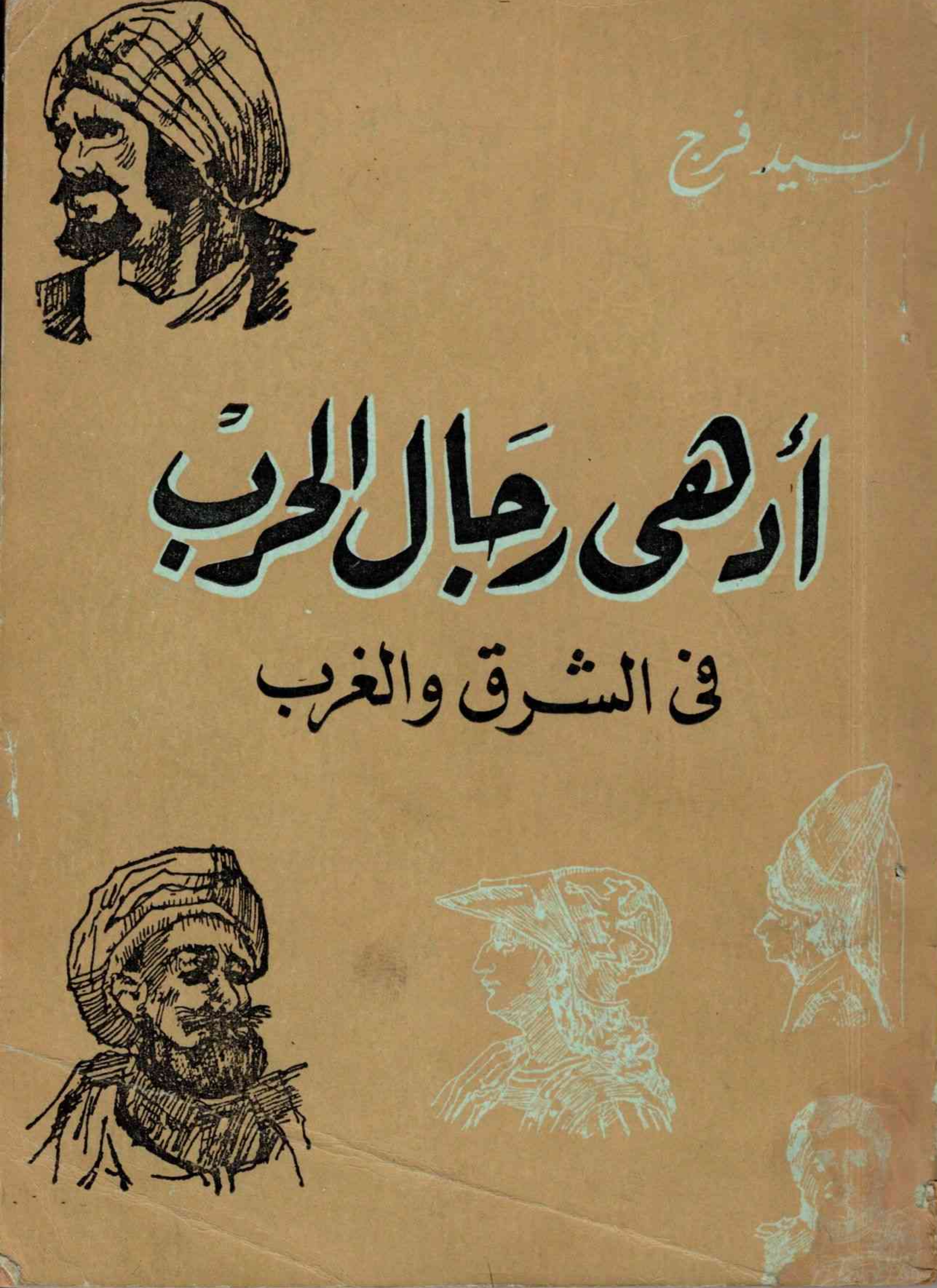


السيد فرج

أدهى رجال الحرب

في الشرق والغرب

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 08 / جمادى الأولى/ 1444 هـ
في 02 / 12 / 2022 م هـ

سرمد حاتم شكر السامرائي

السيد فرج

أدهى رجال الحرب

في الشرق والغرب

م. سرمد حاتم شكر

رقم الايداع بدار الكتب (٢٥٨٠/ ١٩٧٠م)

أدهى رجال الحرب

فى الشرق والغرب

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى - القاهرة ت : ٣١٨١٠

ليس بانســان ولا عاقــل   من لا يعى التاريخ فى صــدره
ومن درى أخبــار من قبله   أضاف أعمــارا الى عمــره



تقديم

ليست معرفة الحروب والمعارك وابطالها من اختصاص العسكريين وحدهم ، وانما هى معرفة او هواية لأكثر الناس فى كل زمان ومكان . ولهذا تحيا اسماء الأبطال المبرزين فلا يضعف من شأنهم مر الأيام وتتابع الأحداث ولا يطفىء بريق شهرتهم ظهور أبطال آخرين من المبدعين والمتفوقين .

كما أن البطل لا يعتبر ابن وطنه ولا فتى عصره وحسب ، وانما هو ابن الجماهير فى العالم كله وفتى جميع العصور ، والذين تألقت اسماؤهم ودوت شهرتهم قبل عشرات ومئات السنين استمر تألقهم واشتهارهم عبر الزمان والمكان دليل صدق على تقدير النبوغ وشاهد اثبات على احترام البطولة .

فالاسكندر « المقدونى » وتحتمس « المصرى » ونابليون « الفرنسى » وخالد « العربى » ووشنطن « الأمريكى » وكوتزوف « الروسى » وروميل « الألمانى » .. كل أولئك وغيرهم من المشاهير ليسوا ملكا لأوطانهم وشعوبهم وحدها ، ولم ترتبط شهرتهم بسنوات حياتهم وحسب ، وانما انتقلوا الى أفكار وقلوب الناس من جيل الى جيل ، وعاشوا فى أحضان التاريخ الذى لا يهمل ولا يتحول ، وبقيت ذكراهم شابة وشهرتهم متواصلة ، واستمرت سيرهم تدرس فى الكليات والأكاديميات العسكرية وقصص بطولاتهم وآثارهم تصدر فى أعداد كبيرة ومتوالية من المطبوعات والكتب والمجلات فى شتى اللغات .. كذلك فان أخبارهم ونوادرهم ما برحت تأخذ بمشاعر الخاصة والعامة كلما جاءت ذكرى او حلت مناسبة .

واهمية القائد الفذ ليست خافية على احد من العسكريين او المدنيين ، فمثلما يكون القائد يكون الجنود . واذا كان من مهام

الحرب الأساسية تعبئة الجنود والمعدات والأسلحة فان المهمة الرئيسية هى بلا ريب وضع القائد المنتصر ، فالقائد هو الذى يحرز النصر .

لقد شهد التاريخ بأن الاسكندر الأكبر هو الذى غزا فارس وأن يوليوس قيصر هو الذى اخضع الغال وأن فردريك الأكبر هو الذى دافع سبعة أعوام عن بروسيا فى مواجهة دول أوربا مجتمعة .

بالقيادة الفطنة استطاع نابليون بونابرت ان يقود جنودا جياعا انصاف عراة عبر جبال الألب ، واستطاع وشنطن أن ينتصر بجنود جدد لم يسبق لهم امتشاق الحسام .

وعندما ولى عقبة بن نافع قيادة الجيوش العربية لفتح شمال افريقيا قال المؤرخون ان هؤلاء العشرة آلاف الذين كانوا تحت قيادته غمرتهم روح معنوية قوية وشملتهم عزائم ماضية حتى كان الجندى منهم بمائة جندى من العدو .. وما كان بينهم الا محب للجهاد مستهين بالأهوال مرحب بالموت ، كقائده ، وزحف عقبة فما شهد الروم ولا البربر زحفا أشد هولا من ذلك الزحف !

ان وجود القائد النابغة يعمل عمل السحر فى نفوس أعوانه ومرءوسيه من قواد وجنود ، وكان عمر بن الخطاب يصف الزبير بن العوام بأنه « رجل بألف رجل » . وكان جنود روبرت لى ـ أعظم قادة الحرب الاهلية الأمريكية من الجانبين ـ يقاسون مرارة الهزيمة مع آلام الجوع والاعياء .. فما آن تهل عليهم طلعته حتى يهبون للقائه ناسين متاعبهم غير آبهين لما كانوا عليه من مهانة وخسران .

وقد اجمع مؤرخو الحرب العالمية الثانية على ان اختيار الجنرال الرزين ايزنهاور قائدا لقوات الحلفاء كان بشيرا بنجاح العمليات المشتركة ، كذلك كان تعيين المارشال مونتجمرى قائدا للجيش الثامن فى معركة شمال افريقيا ايذانا بتحول الموقف وبداية لاندحار قوات المحور ، ذلك لأن مونتجمرى كان مصمما على النصر .

واذا كان من الظاهرات المأثورة والحقائق المشهورة فى تاريخ وثقافة الأمم المتحضرة العناية الوافرة بالتسجيلات والمراجع الرسمية ، والاهتمام البالغ من المؤرخين والشعراء والفنانين بسير الأبطال المشاهير والقواد البواسل الذين أحرزوا لبلادهم النصر وحققوا لها المنعة والأيد ، فان ذلك بلا ريب يبهج الشعوب ويثرى الأفكار والهمم والعزائم ويبهر قراء التاريخ والسير والشخصيات .

وهكذا ينشأ ناشىء الفتيان فى بلاد الغرب فاذا هو يملك رصيدا ضخما من الأمجاد ، وقد صفت صف الجواهر والأحجار الكريمة من سير الأبطال وتواريخ القادة العظام كما صنعها وصاغها البارعون والمبدعون فى فنون التأليف والاخراج واذا نور السلف يضىء للخلف وشعلة المجد العريق ترفعها يد بعد يد ويتلقاها الجيل من الجيل .

وقد وصلت الى أيدينا وغمرت مكتباتنا مؤلفات الكتاب المشاهير وسير الأبطال البواسل فاذا هى حافلة بما يثرى العقول ويبهر الألباب من علامات التفوق وصور البطولة ، بينما تكاد مكتبتنا العربية تخلو من سير أوائلنا رغم ما حفل به تاريخنا من بطولات كريمة وشخصيات عظيمة .

عجيب ولا ريب أن تملأ تواريخ الأبطال وسير القادة الأجانب مكتباتنا وتدرس فى معاهدنا ، ولا يعرف النشء الا النذر اليسير ، كذلك لم نفطن الى بعث هذه السير والأمجاد فى اللغات الأجنبية حتى تبلغ دوائر الرأى والفكر وحتى يكون لنا فى مراجع البطولة أنباء وبطولات ونماذج عالمية .

وقد اعتادت مكتباتنا أن تتلقى أفواجا متتابعة من الكتب الشائقة بأقلام المشاهير وبكافة اللغات عن عظماء القادة فى التاريخ ، دون أن يظهر كتاب واحد عن بطل عربى . كما اعتادت دون النشر وكبريات الصحف نشر موضوعات تاريخية وتسجيلات وقوائم عن ابطال الحروب وكبار القادة دون أن تذكر اسما عربيا واحدا .

فاذا نظرت الى قائمـــة كبار الكتاب التى نشرها فى الماضى او الحاضر كتاب وقادة ومحققون عسكريون ـ من جميع الأجناس ـ تجد ان تلك القوائم تحمل اسماء عديدة من دول شتى وفى أجيال متعاقبة منذ فجر التاريخ حتى اليوم دون ان يظهر فيها اسم بطل عربى واحد ، كأنما خلا تاريخنا من البطولة وكأنما لم يكن لنـا فى ميـدان النصر والفتـح أيام خالدة ووقائع باهرة ورجال من الطراز الأول .

هل اقول أن معـلومات ابنائنا ـ فى شتى مراحل التعـليم ـ ما زالت قاصرة بالنسبة لتاريخنا الاسلامى والعربى واننا لم نتعمق دراسة سير وحياة ومناقب قادتنا العظام .

وهل أقول ان معـلومات أبنائنا ـ فى الشرق العـربى ـ عن الاسكندر وهانيبال ونلسون ونابليـون وروميـل ومونتجمرى .. اشهر واغزر مما نعرف عن سيف الله خالد بن الوليـد والجندى القوى الأمين أبو عبيدة بن الجراح والجندى الدبلوماسى الشـاعر عمرو بن العاص والقائد الأسد سعد بن أبى وقاص ، وغيرهم من القادة الميامين والنوابغ الأفذاذ .

هؤلاء القادة البررة الذين آمنوا برسالتهم واخلصوا لوطنهم العـربى الكبير وقادوا جيوشهم البسـيطة الشجاعة عبر ساحات قتـال صعبة وفى مواجهة جيـوش جرارة فلم تقهرهم الأسلحة والمعدات التى تفوق ما كان بأيديهم ، ولم تصدهم الحصون والقلاع المنيعة وابتكروا الأنظمة واستحدثوا الخطط وكشفوا حقائق الحرب وعوامل النصر ورسموا خريطة الوطن العربى الكبير ، من الخليج الى المحيـط .

ان ابطال الحرب العرب يقفون فى الصف الاول فى ساحة التاريخ مع نظرائهم المشاهير من كل دولة وزمان ، بفعالهم الباهرة وصفاتهم الجليلة .. تجد فى فعـالهم علامات الموهبة والكفاءة من العنـاية

بالاستطلاع والقدرة على استجلاء المواقف والجسارة فى وضع الخطط وتنفيذها والبراعة فى فهم وتحريك الرجال واذكاء العزيمة فى نفوسهم .. وهذه هى صفوة لباب الحرب .

هل جاء تاريخ الحرب كله بأسطورة مثل خالد بن الوليد قائد الجيوش الجرارة المنتصرة يصدر أمر الخليفة بتنحيته عن القيادة فيلبى الأمر فى الحال وينزل الى الصف تحت امرة القائد الجديد !.. ويكون بعمله هذا قد اعطى أول دروس الجندية واهمها على الاطلاق :

ان اول واجب على الجندى هو اطاعة الأمر فى الحال وبلا أى تردد ..

وهل جاء تاريخ الحرب كله بأسطورة مثل ابى عبيدة بن الجراح القائد الذى يجتاح المدن والقلاع ويستولى على الثروات والنفائس .. ولا يأخذ لنفسه شيئا .

فاذا مات ظهرت القيادة الحقيقية فى أروع صورها : النزاهة . فلم يجدوا فى بيته غير عدة الحرب وقطع خبز جافة ، ونظروا وصيته فكانت آخر كلماته للقادة وللجنود :

« انضموا لأمرائكم ولا تغشوهم ولا تلهكم النساء . »

وهل جاء تاريخ الحرب كله بأسطورة مثل القائد الأسد سعد بن ابى وقاص الذى أدار عشرات المعارك بشجاعة وفطنة واخلاص فلم تخدعه الدنيا ولم تصرفه اعظم المغريات عن حقيقة الجندية ، فلما حدثت الفتنة وجاءوا اليه بامارة المؤمنين وقيل له « ان مائة الف سيف تريدك على الخلافة » .. أشاح بوجهه ، وهو احد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب وأحد العشرة الكرام الموعودين بالجنة . لقد رفض الخلافة لأنه كان يعرف مكانه جيدا .. وكان مكانه المفضل هو المكان الذى تضعه فيه القيادة .

وقد حفلت كتب التاريخ والحرب بأمثلة لا يحصيها عد لقادة اقوياء اذكياء ، ينبضون شجاعة وحكمة واخلاصا ووطنية . وقد

اجتمعت لهم مزايا وصفات باهرة وان اختلفت بهم السبل والأهداف ، فمنهم من حارب ليدفع الضيم عن وطنهم ومنهم من حارب لشهوة الغزو والفتح ، فاذا كانت سيوفهم قطرت دما فان قلوبهم كانت تمتلىء بحب الأهل والوطن .

ومن هذا الحشد الذى تضمه صفحات هذا الكتاب من القادة البواسل اخترت عددا من أفذاذ الشرق وآخرين من الغرب ، فلكل بلد رجلها الذى لا ينسى ، وان كانوا جميعا مذكورين فى جميع الاقطار وفى كافة العصور . ولكل منهم خاصة مشهورة أو اضافة لفن الحرب مأثورة .

والقادة الكبار ، كبشر ، لهم ميزاتهم ولهم أخطاؤهم . فليس معنى أن قائدا مشهورا خاض المعارك واحرز الانتصارات لم يكن بلا نقيصه أو عيب ، والتاريخ لم يتحرج فى التسجيل ، فأعطى لكل منهم ما له وأثبت ضده ما عليه .

ثم ان هناك ظاهرة ينبغى أن تكون واضحة عندما نراجع صفات كبار العسكريين وهو أنه اذا كانت الصفات الطيبة كلها مطلوبة فى القائد العظيم فان بعض الصفات الرديئة تعتبر ضرورية ايضا .

من ذلك مثلا إن الحرب تملى على القائد فى بعض المواقف أن يكون ماكرا أو مخادعا أو قاسيا أو سفاكا للدماء .. ومثل هذه الصفات من لوازم الصنعة ، والحرب ـ غالبا ـ صنعة القتل والتدمير .

ولهذا اتفق كثير من المفكرين والمعقبين الحربيين مع المارشال ويفل عندما اعلن بعد دراسة طويلة انه لم يجد وصفا صادقا شاملا تجتمع فيه الصفات والميزات التى لا غنى عنها للقائد الكبير ، كما جاد به سقراط الفيلسوف الحكيم :

« يجب ان يعرف القائد كيف يعطى جنوده تعييناتهم وأى مؤن

اخرى لازمة للحرب . يجب ان تكون لديه ملكة وضع الخطط وقدرة عملية لتنفيذها .

يجب أن يكون دقيقـا حمولا لماحـا ، طيبا وقاسيا ، بسـيطا ومبهما ، مخادعا ويقظا ، كريما وبخيلا ، متعجلا ومتمهلا .

هذه وغيرها من الصفات ـ طبيعية ومكتسبة ـ يجب ان يتحلى بها القائد . وعليه ان يكون ملما بمهنته .. فان جنودا يساقون على غير نظام لا يمكن أن يعتبروا جيشا .. مثل كومة من مواد البنـاء لا يمكن أن نعتبرها بيتا منيفا .. » ! ؟

وفى هذا التعريف قد يجد القارىء صفات تصـلح للصوص وقطاع الطرق والسفاحين ، ولكن هل يمكن أن نقول ذلك فى خالد بن الوليد الذى كان يجاهد فى سبيل الله ، وجورج وشنطن الذى جاءوا به من الحقل ليدرأ الخطر عن أرض الوطن ، وكوتزوف الذى صد نابليون عن موسكو ، وغيرهم من القادة الذين لم يشرعوا السيف الا للدفاع عن الأهل والعرض والحمى ؟

واذا كانت الحرب تحكم على قادتها ببعض الصفات المرذولة ، فلا ريب أن القائد لا يمكن أن يكون عظيما ما لم يكن على خلق عظيم . وقد أجمع الثقاة والمؤرخون على ذلك ، فان قوة الخلق كانت دائما فى مقدمة خصائص القادة العظام .

وفى مقدمة الصفات الطيبة للقادة العظام : الطاعة والولاء وقوة الخلق وتقديس الشرف العسكرى والثقافة العامة والثبـات على الجهد والشجاعة الفطرية والكتمان والصلابة والصحـة .

وربما تكون هناك صفات طيبة لازمة ، غير ان عددا من الصفات المحدودة ينبغى أن تتوفر فى القائد العظيم ومنها :

١ ـ الشجاعة :

وقد كان فولتير يمتـدح فى جون تشرشل (الدوق مارلبورو)

القـائد الانجليزى ، الذى يعتبره ويفـل أعظم قائد فى التـاريخ « الشجاعة الهادئة وسط الأخطـار الماحقـة والهدوء النفسانى فى غمرة الويل » .

وكان نابليون يسأل : هل هذا القائد موفق ؟

وعرف انه كان يقصد : هل هو شجاع ؟..

اى ان نابليون كان يعنى انه لا يمكن ان يكون القائد موفقا ما لم يكن شجاعا ، وكان يقول :

« لو خلا فن الحـرب من المخاطرة لأصـبح المجد فى متناول الأشخاص العاديين »

٢ ـ الولاء :

اذا كان بغير قيادة لا يمكن القيام بعمل عسكرى ، فانه من غير ولاء لا تكون قيادة ، فالولاء او الاخلاص أو الطاعة صفة تسبق كافة الصفات وتوضع فى المقام الأول بين متطلبـات القيادة .

وفى مقدمة دروس الولاء ، ما حدث من خالد بن الوليد ، وهو فى قمة انتصاراته فقد عزله الخليفة فصدع بالأمر فى الحال ، وانتظم فى صفوف الجند ، تحت امرة القائد الجديد .. فلقد كان قائدا مطبوعا على الطاعة : ام القيادة .

كذلك حدث فى الحرب العالمية الثانية ان طلب من المارشال ويفل ارسال قوات الى اليونان ، لانقاذ موقف حرج ، فنفذ على الفور وهو يعلم انه يقتطع من قدرات جيشه ، ولكنه آثر الموقف العام والخطة الشاملة لتحقيق النصر .. فقد كان عليما بموقع الطاعة وموقع المراجعة وموقع المشاورة ، وكان « التمييز » من خصائصه المأثورة .

٣ ـ قوة الخلق :

ان الشرف العسكرى هو سر حياة الجندى الكبير ، فالخلق مقدم على الذكاء . وقد كان يحرم من شرف الجندية من يثبت عليه التراجع أو النكوص او التخلى عن الجنود فى ساعة الحرج .

ولا بد ان يتخذ القائد سلوكا يميزه عن بقية المواطنين ، وأن يكون شعاره « الموت ولا العار » .

ان القائد العظيم ـ كما يصفه مارشال فايول ـ هو الذى يجمع الى الخلق القويم سلامة الذوق وحسن الادراك وكثيرا من المعرفة التى تكتسب بالاطلاع الواسع .

٤ ـ الصلابة :

اذا كانت الصـلابة ـ أو المتانة ـ مطلوبة فى أسلحة وعتـاد الحرب ، فهى أيضا لازمة للقائد ـ وهو أهم أسلحة المعركة ـ ويرى المارشال ويقل أن البحث فى أسباب اخفاق عدد كبير من القواد فى المعارك المشهورة يرجع الى افتقار القائد الى صفة الصلابة ، وهى القدرة على تحمل صدمات الحرب .

ان خير القواد من كان شديدا لا تهزه كارثة ولا توهن عزمه مفاجأة .

وقديما كان رجال المدفعية يختبرون متانة المدافع بالقاء المدفع من ارتفاع مائة قدم ، فاذا أستمر صالحا تقرر قبوله ، ذلك لأن المدافع كانت عرضة للسقوط فى الحروب الجبلية فينبغى أن تكون صـالحة للاستعمال اذا سقطت ، كذلك كانت البنـادق والأسلحة الآلية الصغيرة تطمر فى الوحل ثمانى واربعين ساعة قبل أن تختبر لتقدير درجة كفاءتها .

وعقل القائد لا يطمر ثمانى واربعين ساعة فقط بل اياما وربما أسابيع فى اوحال المعلومات والاشاعات والعوامل المجهولة ، كمـا

يتلقى القائد الصدمات ، من تحركات مفاجئة للعدو أو حوادث غير متوقعة او خداع او اصابة .. فلما يحدث مثلها لمدفع حين يقع من ارتفاع مائة قدم .

ان « الصلابة » هى أهم صفة للقائد ، ولذا يقال ان القائد العظيم هو الذى يعرف فى ساعة الشدة ولحظة الهزيمة كيف يتصرف فى الموقف المتدهور ليقلل الخسائر ويحمى جيشه من الضياع .

٥ ـ الروح الانسانية :

بقيت صفة أو حاسة لا غنى للقائد الكبير عنها مهما احرز من صفات ومزايا ، تلك هى « الروح الانسانية » ، فالقائد الذى يقود جيشا ويتحكم فى مصير آلاف من الجنود يجب ان يكون شغوفا بالانسانية عارفا بالطبيعة البشرية . فاذا أهمل العامل الانسانى حكم على نفسه بالاخفاق .

ان الصلة الشخصية بين القائد والجنود هى العامل الرئيسى للوصول الى الهدف وبلوغ النصر ، وان ثقة الجنود بالقائد هى التى تقضى فى المعركة .

ان نابليون لم يحصل على مكانته لانه درس قواعد الاستراتيجية ، ولكن لانه درس بعمق الطبيعة البشرية فى الحرب ، ولهذا استطاع ان يقود جيشا كان على وشك الثورة أو الانحلال فأمدهم بروح قوية وحبب اليهم ركوب الأخطار وخوض المعارك واحراز النصر ، وجعل منهم « الجيش الكبير » الذى قهر أوربا وبهر العالم وعاش فى أروع صفحات التاريخ .

وبهذه الروح الانسانية استطاع خالد بن الوليد ان يشق بادية العراق ويحرك عشرة آلاف رجل على مفازة رهيبة لا يصاب فيها ماء ولا ظل ، ويطوى مسافة اليومين فى يوم واحد ، ثم يبعث للك

الفرس بملء الثقة يخيره بين الاسلام او الجزية او الحرب ، ويقول له :

« جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

.. ذلك مثل القائد الذى يثق به جنوده ، لأنه قد عرفهم وعرفوه واندمجوا فى « وحدة القائد والجند » اتجاها الى هدف مطلوب وغاية شريفة يبلغون بها احدى الحسنيين : النصر او الشهادة .

ان الميزة الكبرى ذات الأسبقية على كافة مزايا القيادة الناجحة هى : ثقة القائد بنفسه وثقة الجنود بالقائد .

ان المرجع الأساسى للثقة هو : شخصية القائد .

ان القائد الذى لا يهتم بالناحية الانسانية هو قائد فاشل .

وان الجنود .. كل الجنود .. يحبون ان يسيروا فى قيادة قائد منتصر .

وبعد ، فانه يمكن اطلاق وصف ((**القائد العظيم**)) اذا ما توافرت الخصائص التالية :

١ - هو الذى يعرف اولا : ماذا يريد .. يجب أن يرى غرضه واضحا وان يحشد لغرضه كل قواه وامكانياته فى المكان والوقت المناسبين .

٢ - وهو الذى يجعل رجاله يعيشون فى جو المعركة فاهمين لما يدور فيها متنبهين لكل ما هو مطلوب منهم .

٣ - وهو الذى يتيح لمعاونيه ورجاله معرفة المعلومات بقدر المستطاع اولا بأول .

٤ - وهو الذى يرفض المركزية ويجعل رجاله يعملون فى التفصيلات ولا يدع لنفسه غير التوجيهات العامة .

٥ - وهو الذى يحسن اختيار معاونيه ويجيد توجيههم بمجهود يسير .

٦ - وهو الذى يبقى فى خط النار حتى يتم النصر .

٧ - وهو الذى يتمعن فى فهم أخلاق جنوده والشعور بالعواطف التى تؤثر فيهم .

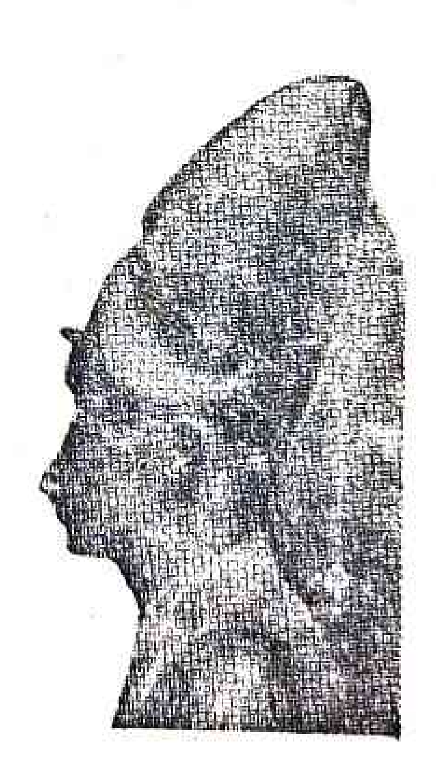
٨ - وهو الذى يعنى بالروح المعنوية والضبط والربط والاحترام الشخصى وثقة الجنود به وبأسلحتهم وهدفهم .

٩ - وهو الذى يقود جنوده بروح قائد الفريق فيعملون متآخين لاحراز النصر المبين .

١٠- وهو الذى يستطيع وضع رجاله كل فيما يليق له ، اى بوضع الرجل المناسب فى المكان المناسب فى الوقت المناسب .

القائد المصرى :

تحتمس الثالث



« نابليون الشرق القديم »

لقد عرفت مصر الكثير عن الحـرب وفنونها واصول القيـادة ومبادىء القتال قبل ان تشرق شمس الحضارة والمدنية على كثير من الدول والممالك التى صارت ذات نفوذ وقوة .

ولم يكن نصيب مصر مجرد عـدد من الانتصـارات الحربيـة التاريخية وانما كان لقادة مصر الاقدمين فضل الابتكار والسبق فى تنظيم الجيوش وتنسيق الاسلحة واعـداد الرجال ووضع الخطط وتجميع عوامل النصر .

وقد كشفت الآثار المصرية القديمة عن الكثير من علامات السبق ودلائل التفوق فى استخدام القواد المصريين لمبادىء الحرب وخططها وتنظيم الجيوش وتحريكها وغير ذلك من المعـارف التى ذاعت فيما بعد ، وعزيت ــ عن خطأ أو قصد ــ لغيرهم من المتقدمين .

ان من يدرس تاريخ مصر القديمة يقف على تفوق باهر فى جميع شئون الحرب ، مما يستوجب عناية المسئولين واهتمام العسكريين ، كما انه يقف امام حشد من القادة العظـام امثال احمس وتحتمس ورمسيس ، الذين كانت لهم مزايا وصفات باهرة تضعهم فى الصف الاول بين عظماء القادة فى جميع العصور .

ولقد حدثنى استاذ الجيل فى تاريخ مصر القديمة الدكتور سليم حسن عن هؤلاء القادة وفنونهم ومعاركهم وآثارهم مما شوقنى الى المزيد من المعرفة والبحث والدراسة المقارنة ، فلما اردت ان اتخير قائدا مثاليا اضعه كنموذج للقائد المصرى ، وجدت اكثر من واحد ، ثم وافقنى على اختيار تحتمس الثالث ، الذى يلقبه مؤرخو الغرب بحق « نابليون الشرق » .

بطل الاستقلال

ومما يذكر بالتمجيد والفخـار ــ وخاصة بالنسـبة للظروف التاريخية التى تمر بها مصر الآن ــ ان تحتمس الثالث هو الذى اتم

العمل العظيم الذى تحررت به مصر من نير الاستعمار ، فاذا كان احمس الأول قد اجلى الهكسوس عن البلاد واسس اول امبراطورية مصرية .. فان تحتمس الثالث هو الذى مد سلطانها وثبت دعائمها وحررها من التهديد الأجنبى وجعل منها اعظم امبراطورية فى زمانه تمتد من اعالى دجلة والفرات شمالا الى الشلال الرابع جنوبا .

لقد ناءت مصر بأعباء الاستعمار الهكسوسى وتلظت بناره ، واخذ شعبها الأبى يكافح ويناضل للتخلص من الاحتـــلال الأجنبى حتى استطاع احمس الأول أن يدهم الهكسوس ويذيقهم كأس الهزيمة ويدفع بهم بعيدا عن حيـاض الوطن ولكن بقى شبح الغـزو قائمـا ومصدر الخطر باقيا حتى ولى الأمر تحتمس الثالث ، وكان ـ كقائد موهوب ـ يعلم ان درء الخطر انما يكون بالقضاء على مصدره ، وان الدفاع عن الوطن لا يكون عند الحدود ، بل خارجا عنها . ولهذا حرك قواته المدربة المنظمة الى حرب لا هوادة فيها ، واستخدم فنه الحربى وخبرة قواده وبسالة قواته فى ضرب العدو والاجهاز عليـه وتحرير الوطن من ربقة الخوف والتهديد ، فلما تم له ذلك توطدت أركان الامبراطورية المصرية وعز شأنها .

قائد وجيـوش

لقـد حـكم الملك تحتمس الثالث ٥٤ سنة من سنة ١٥٠٤ ـ ١٤٥٠ ق.م ، وقد بدأت هذه الفترة بحكم الملكة حتشبسوت الفعلى طيلة احـدى وعشرين سنة خالية من الحـروب والمكاره ، حافلة بالرخاء والعمران ، فلما ماتت نهض تحتمس ـ بعد انتظار طويل ـ يفرغ ما اختزنه من دراسة وخطط وافكار ، والفى امامه بلادا عامرة زاهرة وجيشا عرمرما مدربا ، وعدوا يتربص بها الدوائر ويشعل نار الفتنة والحقد على حدود البلاد . فلم تمض اسابيع على تولتـه العرش حتى قاد ذلك الجيش الكبير الى ساحات القتال فى سلسلة

من الحملات لتأمين حدود الامبراطورية المصرية وتخليصها من شبح التهديد والخطر .

وكان الهكسوس ـ على اثر طردهم من مصر ـ يقيمون فى الاقطار الأسيوية المجاورة ، يؤلبون الأجانب ويتحينون الفرصة للعودة الى غزوة جديدة ، فأعلنت سوريا العصيان وتجمع الأعداء فى حلف كبير بقيادة ملك قادش (١٠٠ ميل شمال دمشق) فلم تكن مندوحة من ان ينهض فرعون مصر لتأديب العصاة ودفع ذلك الخطر ... وبدات سلسلة من المعـــارك الكبرى لتأمين حـــدود مصر وتثبيت دعائم امبراطوريتها وصيانة استقلالها .

الى الحرب ..

وضع تحتمس خطته لغزو سوريا والقضاء على اعدائه فى آسيا ، ومن حسن الحـظ ان هذه الخطط والمعـــارك قد سجلت بأغلب تفصيلاتها وبقيت الى يومنا هذا شـــاهدة بمجد الفراعنـــة ورسوخ قدمهم فى الفن الحربى ، وقد جرت العادة عندهم بتدوين « يوميات القتال » فبقيت حتى اليوم خالدة الأثر ، كتلك التسجيلات الرائعة التى ازدانت بها جدران معـــابد الكرنك وهى توضح ســـير حملة تحتمس ، وتجعل من « مجـــدو » موقعـــة كبرى من وقائع التاريخ الفاصلة لما دار فيها من ضروب القتال ، وما انتهت اليـــه من عظيم النتـــائج .

وهـــذه الحروب تدل على بعـــد نظر فى « الاستراتيجية » التى وضعت على اساس ان الدفاع يجب أن يكون بعيدا عن الغرض الى جانب الترتيبات الادارية التى جعلت غزو الأقاليم الشمالية ممكنا ، فاستطاع الفرعون ان يمضى الى قهر خصومه وتأمين امبراطوريته ، وتحرير شعبه من خطر التهديد .

بدا الحملة من قاعدة « القنطـــرة » ـ وكانت تسمى فى القـــديم

« سبلة » ـ يوم ١٦ أبريل ١٤٧٩ ق.م فتحركت القوات عبر الصحراء الشرقية الى فلسطين ، فوصلت « غزة » بعد مسيرة عشرة أيام قطعت فيها مائة وخمسة وعشرين ميلا ، اى بنسبة اثنى عشر ميلا ونصف فى اليوم ، وهذا رقم يستلفت النظر ، وخاصة فى بقاع صحراوية ، ولقوات اغلبها مشاة . . ومع هذا فقد وصل الجيش الى غزة فى المساء ولم يمكث بها بل بارحها فى الصباح الى « يما » قاطعا ثمانين ميلا اخرى حيث بدات الترتيبات والتنظيمات لدخول المعركة .

مجلس الحرب

وفى « يما » استقر المقام ـ كما قدمنا ـ وعسكرت القوات استعدادا للمعركة وللمرة الأولى فى التاريخ عقد تحتمس الثالث أول مجلس حربى لاستشارة قواده فى وضع تفاصيل الخطة ، وقد وجد « محضر الاجتماع » منقوشا على الآثار القديمة ، وهذا بعض ما جاء فيه :

ان ذلك العدو الخاسىء ، صاحب « قادش » قد جاء بجيشه ونصب خيامه فيها ، وهو يقيم بها فى تلك الآونة ، وقد ضم اليه كل أفراد الأقاليم الذين كانوا يدينون بخضوعهم لمصر حتى نهر الفرات ، ومعه السوريون وقوم قودة بخيلهم وجنودهم وعشيرتهم ، وانه يقول حسب ما وصل الى مسامعنا « سأقف هنا لمحاربة جلالته فى بلدة « مجدو » فحدثونى ما يدور بخلدكم فى هذا الطلب ، فأجابوا جلالته قائلين : « كيف يتسنى للمرء ان يسير فى هذا المضيق ، وقد وصلتنا الاخبار بأن العدو على تمام الاستعداد هناك فى خارج المدينة . وان عددهم هائل . وهل سيكون السير مستطاعا الا اذا سار الجواد خلف الجواد ، والجندى خلف الجندى وهل ستكون

مقدمة الجيش بهذه الطريقة فى ساحات القتال فى حين ان المؤخرة تكون لا تزال واقفة فى عرونة عاجزة عن محاربة العدو ؟

كما انه يوجد طريقان اخريان ، واحدة منهما تؤدى الى « تاعناخ » والأخرى تتجه شمال « زفتى » مؤدية الى شمال « مجدو » وبذلك لا تضطر الى سلوك هذا المسلك الوعر ! .

فأجاب الملك قائلا :

« انني ما دمت حيا وما دام الاله رع يحبنى وما دام والدى آمون يرعانى ، وما دام نفس الحياة ينعشنى بالحياة والقوة فانى لا أسلك الا هذه الطريق المؤدية الى « عرونة ! » .

لقد اختار تحتمس الطريق الوعر .. أقسى الطرق الثلاثة ، على غير ما يتوقع العدو ، وهنا يبرز مبدأ **« المفاجأة »** فى خططه .

ثم اصدر منشورا « أمر يومى » أنه استقر رأيه على قيادة جيشه بنفسه وانه سيكون على رأس جيشه فى المقدمة .

وهنا **يبرز المثل الأعلى الذى يقدمه القائد لجنوده** بأن يشاركهم اعباء القتال وأن يواجه معهم الاخطار .

وصف المعركة

عندما اخذ القائد المبتكر يعمل فكرة فى تقدير الموقف وجد ثلاث طرق مفتوحة امامه ، وقدر ان العدو يرتقب تقدمه على احدى طريقين دون الثالث ، وهو اصعبها واشدها وعورة ، فاختار هو ذلك الطريق الوعر الذى لا يتوقعه العدو ، من عرونة الى « مجدو » ، بقصد المفاجأة . وقد تم له عبور المر الضيق وما صادفه من مرتفعات وعقبات حتى اذا انتهى منه اخذ ينشر قواته ويجرى ترتيبات الوقاية والأمن والملاحظة ! .. بينما كان العدو يرقب الطرق الأخرى ويحشد قواته

امامها ... ولهذا كانت الصدمة الأولى قوية أطاحت بمعنويات العدو ومادياته فى وادى « قنا » حتى لم تستطع تلك القوات المغلوبة على امرها ان تثبت او تقاوم أو تأخذ فى هجوم مضـــاد ، وذلك بسبب الضربات المدمرة التى حلت بها ولما انتشر فى صفوف المهزومين من فزع واضطراب .

وكان تحتمس قد نظم قواته للمعركة بأن جعل للجيش قلبـــا وجنــاحين . وارســل أمام الجيش مقدمة دفع منهــا وحدات استكشافية ، كأحداث تعاليم الحرب الحديثـــة وقد حقق فى هذه المعركة ثلاث مبادىء هامة : المفاجأة ، والوقاية ، والقتال الهجومى.

وقد وجد الأثريون اثر هذه المعركة التاريخية . وقد جاء فيه :

كان الجناح الأيسر مرتكزا على ربوة جنوب « قنا » والجنــاح الايمن معسكرا فى شمال غرب « مجدو » وكان جلالتــه فى وسطهما يحميه الاله آمون فى حومة الوغى . وكانت قوة بأس الاله « ست » ــ اله الحرب ــ تدب فى أعضائه . ففاز فوزا مبينا وهو على راس جيشه ، وقد راوا جلالته والنصر حليفه ولذلك ولوا الأدبار نحــو « مجدو » بوجوه يغمرها الذعر والهلع تاركين خيلهم وعرباتهم ... وســقط منهم على الأرض اكداس من القتلى ثم دخلوا « مجــدو » ... الخ .

وانتقل ميــدان المعركة الى « مجــدو » التى حاصرها تحتمس الثالث سبعة اشهر استسلمت بعدها صاغرة واقسم الأمــراء على ان لا يعودوا الى العصيان مرة اخرى .

تحتمس « صياد الأسيويين »

ومن هذه المعركة تتضح شخصية القائد ، فهو عند وضع خطته قدر ان يفاجىء العدو ، فاختار اصعب طريق ومثله فعل عظمـــاء القادة فيما بعد ، فهانيبال عبر الألب ، ونابليون ، وايضا مونتجمرى

اختار اقوى النقط فى خط دفاع المحور عند العلمين وركز هجومه عليها .. كما ان خطة تحتمس انطوت على المغامرة ، التى اعتبرها نابليون من خصائص الجندى الكبير فقال « لو خلا فن الحرب من المخاطرة ، لأصبح المجد فى متناول الاشخاص العاديين » .

كذلك تتضح شخصية تحتمس القائد من تصرفه مع الأعداء المنهزمين ، فهو لم يأمر بقتلهم او التنكيل بهم ، بل اعتبر المعركة مباراة ، تقتضى الرحمة بالمهزوم ! . وكان بذلك عنوانا لشعبه الذى وصفه الأثرى wigal بأنه أعظم شعوب العالم القديمة رحمة وانسانية .

وقد كان تحتمس رجل حرب وسياسة ، شأن عظماء القادة ، ففكر فى مستقبل اكثر امنا واستقرارا ، بأن نصب امراء جدد على المقاطعات المغزوة ، ثم اخذ اولاد هؤلاء الأمراء ليتعلموا فى مصر ضمانا لاستقامة آبائهم من ناحية ورغبة فى اشباعهم بحب مصر وتنشئتهم على الاخلاص لها عندما يصبحون حكاما فى المستقبل .

قوات البر والبحر

ولم تكن الحروب التى خاضها تحتمس الثالث برية فحسب بل اشتملت حملاته على قوات بحرية أيضا ، وكان أول قائد فى العالم يضع خطة مشتركة تتعاون فيها قوات البر والبحر بتوقيت دقيق وتعاون متبادل ، فاستخدم أسطولا كبيرا للنزول فى ساحل فينيقيا متخذا من ذلك الساحل قاعدة تبدأ منها عملياته فى بلاد النهرين .. وهى خطة لم يسبقه اليها أحد ، وقال عنها احد المؤرخين المحدثين ان هذه الخطة لو استخدمت فى حملة فلسطين لاستطاع الانجليز دحر الأتراك فى العام الأول من تلك الحملة .

استاذ « اللنبى » و « مونتجمرى »

ان معركة « مجدو » قد عادت الى الوجود مرة اخرى بعد اربعة آلاف وخمسمائة سنة ، وجرت على ذات الطريق الذى سار عليه

تحتمس الثالث . فان الجنرال اللنبى نسج على منـوالـه حين كان يدفع الجيش التركى فى بقاع سوريا عام ١٩١٨ حيث هزمهم فى نفس المكان لما القى بفرسانه فى ممر عرونة مستوحيا خطة تحتمس وتجربة مجدو الأولى فى فاتحة تاريخ الحرب .

كذلك اقتفى اثره المارشـــال مونتجمرى بعد هذه الآلاف من السنين عندما عبر نهر الرين على سفن جىء بها برا من السـاحل على غرار ما فعله تحتمس الثالث فى حملتـه البرية البحرية على سوريا ... والفضل للمتقدم .

قائد عالمى

ويقول العلامة استاذ التاريخ المصرى القـــديم الدكتور سليم حسن فى كتابه المشهور « مصر القديمة » أن تحتمس الثالث كان رجلا حرب بطبعه ، وقد دان العالم المتمدين لسطوته وعز سـلطانه حتى صار قبل وفاته يسيطر على امبراطورية تمتد من أعالى نهر دجـلة والفرات شمالا ، حتى مدينة نباتا ـ عند الشلال الرابع ـ جنوبا ، ولم يخف على فطنة تحتمس أن يحدد لخلفائه من بعـده حــدود امبراطوريته ـ مثلما فعل « سونسرت الثالث » عندما وضع لوحة الحدود الشهيرة عند « سمنة » .. اذ انه عنـدما عبر الفرات اقام لوحة تذكارية فى الجهة الغربية من هذا النهر لتكون بمثابة آخر نقطة وصلت اليها فتوحه فى الشمال ، اما فى الجنوب فقد حــدد فتوحه أيضا بلوحة من الجرانيت اقامها عند جبل « بركال » على مقربة من مدينة نباتا ، وهذه النقطـة على ما يظهر آخر ما وصل اليـه الفتح المصرى فى كل عصور التاريخ القديم . وقد حدثنا فيها هذا الفرعون عن قوة سلطانه وما احرزه من انتصـارات على الآسيويين دون أن يشير اشارة صريحة الى انتصاراته على بلاد « كوش » ، ولا عجب ! اذا كان تحتمس قد تغاضى قصدا عن ذكر انتصاراته على السودانيين تفاديا من جرح شعورهم أو التنديد بهم فى عقر دارهم . فهل يا ترى

« تفاؤل » تحتمس الثالث فى اللوحة التى اقامها عند الفرات عن ذكر انتصاراته على الآسيويين ؟ واذا كانت الاشياء تقاس باشباهها فقد يكون ذلك غير بعيد على رجل ضرب الرقم القياسى على ما يظهر فى ميدان الحرب والسياسة معا .. وبين هذين الاثرين – اى لوحة الفرات ولوحة جبل بركال – تقع امبراطورية تحتمس الثالث التى دانت له بحد السيف ومضاء العزيمة وحسن السياسة .

اذكروا تحتمس الثالث

وبعد ، فانه ليس من الغريب ان نبحث ونداوم البحث عن عباقرة العسكريين من رجال الغرب بينما تاريخنا القديم زاخر ببطولات فذة وخطط بارعة ومعارك هائلة تقتضى منا دراسة مستفيضة لا تكفى فيها امثال هذه الصفحات ، وقد جاء فى كتاب « مصر القديمة » للدكتور سليم حسن أنه لا غرابة فى عبقرية تحتمس الثالث العسكرية ، فقد نشأ فى عصر كله حروب وغزوات وكان أجداده ملوك الاسرة الثامنة عشرة قد قضوا معظم حياتهم فى ساحات القتال شمالا وجنوبا يغزون آسيا مرة ويهدئون الثورات فى السودان مرة أخرى .

هذا الى أن البلاد من أقصاها الى أقصاها كان لا حديث لها غير الغزاة الذين استعبدوهم مدة قرن ونصف من الزمان وأن بقايا هؤلاء الغزاة كانوا لا يزالون يقطنون آسيا وان الخوف كان لا يزال عالقا بأذهان المسنين منهم على الرغم من امتداد فتوح الفراعنة العظام حتى نهر الفرات .

وفى هذا الجو الذى كان يملؤه رنين السيوف واهوال الحرب نشأ « تحتمس الثالث » وقد أراد والده أن ينشئه تنشئة دينية فوضعه فى معبد آمون بالكرنك .

غير انه على ما يظهر كان الكهنة انفسهم متشبعين بروح الهمم

الذى كان يعد اله الحرب وناصر الفراعنة فى ساحة القتال فنشوا فى نفسه ذلك الروح الحربى الذى ساد البلاد فى هذا العهد ولقنوه دروسا فى البطولة والشجاعة وضربوا له الأمثال بأجداده ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، ومن قبلهم ملوك الأسرة الثانية عشرة . وبخاصة « سونسرت الثالث » الذى كان يعتبر فى نظر الشعب المصرى بطل الفتوح المصرية وموقظ روح الوطنية والبطولة .

والعجب العجاب أنك ترى الخطط الحربية المنظمة المحبوكة التى تعززها البسالة والأقدام والذكاء الخارق مما لم يسمع به فى تاريخ الحروب من قبل ، ومن يطلع على هذا النظام وتلك الخطط البارعة التى وضعها ذلك القائد الفذ لا يشك فى أن تحتمس الثالث كان يفكر فيها ويدرسها من كل نواحيها ، ولا نزاع فى أن معركة « مجدو » أولى انتصاراته ، وما جاء فيها من خطط سديدة وحركات فنية كانت أول درس ألقى على قواد العالم القديم ، بل والحديث من فنون الحرب وقيادتها .

أليس هو تحتمس الثالث أول من قسم الجيش الى جناحين وقلب ، وأنه هو الذى بجسارته وحبه للمغامرة فى سبيل نيل مآربه قد اتخذ أقصر الطرق ــ مع ما فيها من مخاطرة ــ لمهاجمة العدو ، وأنه هو الذى أراد أن يضرب المثل الأعلى لمجلسه الحربى الذى عقده ــ ولا نعلم أن مجلسا حربيا أعلى عقد قبل ذلك فى العالم ــ فعول على أن يكون أول مضح بحياته اذا ما دعا داعى الوطنية والشرف !

ثم نرى تحتمس يكشف لنا عن صفحة أخرى من مجده ومهارته وشدة ذكائه واحكام خططه فتشاهده يسير بأسطوله ويفتح الموانىء التى تقع على شاطىء فينيقيا ليتخذها قاعدة حربية لتموين جيوشه التى كانت تغزو قلب آسيا حتى لا يطعن من خلف ، وحتى يمكنه أن يضرب ضربته وهو مطمئن ، ويكون أسطوله الرابطة بينه وبين

مصر من جهة ، وبينه وبين جيوشه ـ التى كانت تسير فى أرض معادية ـ من جهة اخرى ، وقد امد هذه الموانى بالمواد الاولية والصناع ، وكل ما يلزم لجيشه من عتاد ومؤن .

وتظهر عبقرية تحتمس مرة اخرى فى ابتكار الخطط واعداد العدة لنيل مآربه مما جعله على رأس الفاتحين من حيث العبقرية والذكاء فقد فكر فى بناء سفن حربية لنقل جيشه عبر نهر الفرات حتى يسهل عليه اتمام الفتح ، ولكنه خشى من صفها فى أراض العدو الذى ربما أفسد عليه خطته ، ولذلك بنى سفنه قطعا متفرقة ثم ابتكر لها عربات من نوع خاص تجرها الثيران حتى شاطىء الفرات ، حيث ركبت أجزاؤها وبذلك نفذت خطته التى كانت نسيج وحدها .

وها نحن اولاء نسمع فى تاريخ الحرب الحديثة ان القواد العظام يأخذون دروسا عن قائد مصر ، فيقول دكتور « ولسون » أن الجنرال اللورد اللنبى سار على هدى خطط تحتمس الثالث فى احراز النصر على الأتراك فى اختراق ممر «عرونة» الذى سلكه الفاتح العظيم ويحدثنا المؤرخ « فولكنر » أن المارشال مونتجمرى قد نقل السفن الصغيرة من شاطىء البحر محمولة حتى نهر الراين ليعبر بها ويباغت العدو ، مثلما فعل تحتمس الثالث قبل آلاف السنين .

القائد اليونانى :

الاسكندر الأكبر



القائد الشاب الذى قهر الدنيـــا وهــو فى الثلاثين .

والنجم الذى ما زال مضيئا فى سماء الجندية منذ آلاف السنين .

والبطل الذى يزهو به شباب العسكريين فى كل حين .

والفاتح الغازى لأول امبراطورية فى العالمين .

ما زال اسم الاسكندر الاكبر مشهورا رغم مرور السنين ، فهو قدوة شباب العسكريين يقراون فى تاريخه صفحات البطولة والمجد وآيات الاقدام واللماحية وسمات المبقرية العسكرية .

انه القائد الشاب الذى ولى أمر بلاده ، فوجهها الى التوسع والاستزادة ، وقادها الى ميادين الغلبة والفوز ، فصار سيدا لأكثر من نصف العالم فى ثلاث عشرة سنة ، وقهر الفرس ــ اكبر قوة فى زمانه ــ وغزا آسيا الى البنجاب .

ولم يكن الاسكندر قائدا فحسب بل كان مصلحا ومنظما يحمل راية الاصلاح الى الأقطار المقهورة ، فكسب تقدير أهلها وثقتهم ، وقدم اليهم الثقافة اليونانية وسعى الى تزاوج الشرق والغرب ، ليكون العالم واحدا .

ولد الأسكندر بينما كانت جيوش أبيه ملك مقدونيا تمتد قبضتها نحو البلاد المجاورة وتكسب النصر بعد النصر ، واشترك والده ووالدته فى تنشئته فاختار كل منهما معلما خاصا لتربيته ، فاختار له أبوه فيليب : الأستاذ ليزيما كوس ، واختارت له أمه أوليمبيا : الأستاذ ليوانيدس ، وهو الذى طبعه بطابع الرجولة والخشونة والقصد ، وعوده الاعتماد على النفس والاقتصاد على الضرورى والعزوف عن الكماليات والملذات .

وهكذا نشأ الاسكندر نشأة جادة مستقيمة وعاش عيشة الجنود وارتدى ثياب البطولة مبكرا ، وقد حدث ان احضر احد تجار الجياد للملك فيليب جوادا محجلا من الجياد المشهورة ــ وكان يسمى « بوسيفالوس » ــ ولم يجسر احد على ركوب هذا الجواد الثائر الجامح ، فما كان من الاسكندر ــ وهو فى الثامنة عشرة من عمره الا أن نهض فأخذ بعنان الجواد وادار وجهه نحو الشمس وقفز الى ظهره ومضى .. ! فلان له العنان واسلس له القياد بين دهشة النظارة وفرحة ابيه الملك الذى قال له :

« يا ابنى : لابد لك من ملك اوسع من هذا ، فان مقدونيا وحدها اضيق من ان تتسع لهمتك » .

وفى خلال عشرين سنة كان هذا اليافع الشجاع قد غزا العالم ، فلما مات حصانه هذا فى الهند أطلق الاسكندر اسمه العزيز على مدينة اسميت بوسيفاليا ، على حد رواية المؤرخ اليونانى الأشـــهر بلوتارك .

واستدعى له والده كبير فلاسفة عصره ، واحـــد الخــــالدين ارسطو ، فكان له اعظم الأثر فى توجيهه وصقله .

ودخل الاسكندر حومة القتال تحت قيادة والده ضد الاتينيين عام ٣٣٨ ق.م ـ وكان فى الثامنة عشرة من عمره ـ قائدا لفرســان مقدونيا فى معركة شارونيا التى كان له فيها دور حاسم نم عن براعته ومقدرته وتفوقه ، كما انه عرك شئون الحكم فترة طويلة فى غيــاب والده فعرف الكثير من هذه الشئون ، فلما قتل الملك فيليب غيلة فى عام ٣٣٦ ق.م استوى الاسكندر على عرش مقدونيا وهو فى العشرين وقد انعقدت له القيـــادة العسكرية والزعامة الشعبية ، وبدا بداية موفقة ، فقد كان يقول :

ان التأثير الذى يحدثه الحاكم فى بداية عهـــده يبقى خالدا مدى حيــاته .

وقد واجهته العقبات ساعة ارتقــــائه العرش ، فان اعـــدائه استصغروا شانه ، وظنوا أن الفرصة مواتية لشق عصا الطاعة على مقدونيا ، وكاد الاغريق ينكصون على اعقابهم فى فكرة غزو فارس ، واخذت مدن اليونان تتمرد على الحاميات المقدونية .

وسرعان ما اعــد الاسكندر عدته واتجه الى المتألبين فدحر جيشهم فى معركة بغير دماء .. فقد قطع عليهم خط رجعتهم واحاط

بهم فاضطروا للتسليم ، واخضع بقية بلاد الاغريق ، واتخذ مجلس كورنثة قرارا باختياره قائدا عاما لليونانيين فى حملة غزو آسيا التى كانت خطة غزوها قد وضعت فى عهد والده .

ديجونيس

وفى مدينة كورنثة تمت مقابلة تاريخية مشهورة بين الاسكندر الفاتح ، والأستاذ ديجونيس الفليسوف المعلم ، وقد اقترب القائد الشاب من الفليسوف الجالس فى عزلة يصطلى بشعاع الشمس ، وقال له « هل لى أن أقدم لك خدمة » ؟

قال الفليسوف « ابتعد .. ودع الشمس » .

وقد كان الاسكندر يقول : لو لم اكن الاسكندر لوددت أن اكون « ديجونيس » .

الى الشرق

تحركت حملة الاسكندر الى الشرق وعبرت الدردنل وحطت فى آسيا عام ٣٣٤ وكان تعدادها ٣٠ الف مشاة و ٥ آلاف فارس ، وكانت أول معركة له فى « جرانيقة » حيث هزم أحد الجيوش الفارسية واستولى على مدن الساحل فى آسيا الصغرى وبدأ يظهر براعته العسكرية فى ميدان فسيح تحت سمع التاريخ وبصره . وقد رصد المؤرخون مشروعات الاسكندر الاستراتيجية وخططه التكتيكية واعتبروه القائد الذى بز الجميع ، وقد اعتبره نابليون أعظم القادة الذين احتوتهم قائمته ـ وهى تضم سبعة قواد عظام : الاسكندر ، هانيبال ، بوليوس قيصر ، جوستاف ادولف ، توريا ، برنس أوجين ، فردريك الأكبر .

وكان الاسكندر الى جانب براعته العسكرية حكيمـــا لا يحفل بالماديات ، ولا يعرف الحياة الا انها جهاد وتضحية وامل وعلو .. فلما أزمع غزو آسيا وزع ضياعه الموروثة على اصدقائه فلما سأله احدهم « برديكاس » : الا تستبقى شيئا لنفسك ؟ قال الاسكندر : نعم ، استبقيت الأمل ! .

وفى خلال المعارك كان الاسكندر يقف فى عربته ، وقد وضع الدرع على صدره وريش أبيض على جانبى خوذته ، وكان يخوض المعمعان وسط جنوده فيلتف حوله القادة ينشدون وقايتـه ويطلبون اليـه الحيطة فلا يأبه لذلك ، وكأنه كان يقـدر أنه لن يموت فى ميـــدان المعـركة .

الحرب هى الهجـوم

والآن الى المعركة الكبرى . الى حيث يستعد الملك الأكبر ـ كما كان داريوس ملك الفرس يلقب نفسـه ، وهو يحكم العـالم ! ـ ولم يكن داريوس ملكا قويا ولا قائدا محنكا ، ولكن جيشـه كان اكبر خمس مرات من جيش الاســـكندر وكان يحـارب فى الأودية التى يعرف مسالكها جيدا ، وبهذا كان له التفوق العددى والمبـاداة والأرض ـ وروح الدفاع العدائى .. ولكن كان قبالته : ألمعية الاسكندر وجيشـه المنظـم .

وكان الاسكندر يفهم الحرب على انها الهجوم باكبر قوة وفى اسرع وقت ، فما ان التقى بجيوش دارا الثالث فى ايوس حتى بدد شملها واحرز انتصارا باهرا جعله يتقدم من فوره لمهاجمة «صيدا» ثم « صور » التى قاومت طويلا فاضطر الاسكندر الى تدميرها .

اربيــــلا

ان دخول الاسكندر المقدونى آسيا كان فصلا من فصول التاريخ الخالدة ، بدات به معاملات اوروبا بآسيا التى استمرت حتى اليوم ، فقد انتزعت اوروبا السيادة من آسيا .

وقبل الاسكندر كانت بلاده واوروبا فى تهديد مستمر من اغارات الفرس وهجماتهم وتوغل نفوذهم ، فقلب الاسكندر الآية وفتح الطريق للغربيين الى الشرق .

ولهذا يعتبر المؤرخون معركة اربيلا من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، وقال عنها نابليون « عبر الاسكندر الفرات ودجلة وخاض معركة اربيلا ، التى فاز فيها على داريوس وحل عقد الامبراطورية الفارسية ، وأخذ مكانها ، ففتحت له عواصم فارس ابوابها ، فدخل بابل وسوسا وباسرجاد ، حيث دفن « كورش العظيم » ثم انعطف شمالا فامتلك شطوط قزوين ، وبلاد الديلم ، واقتص من باسوس الخائن لقتله داريوس ، وغزا هندستان . وأسر بوروس ملك البنجاب ، وعاد منها بثمانمائة سفينة » .

وتقع اربيلا شرقى نهر دجلة ، بينه وبين جبال كردستان فى سهل شاسع أرضه منبسطة ملائمة لسير العربات وتحركات الفرسان . وكان داريوس قد اختار المكان والزمان ، ولكن الاسكندر كسب المعركة بمهارته وحسن تنظيمه لقواته .

كان جيش الاسكندر ٤٠ الف مشاة و ٧ آلاف فرسان مسلحون بالرماح الطويلة (١٨ قدم) والسيوف والنبال والقلاع ـ ادوات الحرب فى زمانه ـ وكان جنوده على حد وصف المؤرخين وتقارير المعارك متفوقة فى مستوى التسليح والتدريب والضبط والربط ، بينما كانت جنود داريوس كثيرة العدد متعددة الأوطان : من افغانستان وتبيت وبخارى وجينوا وكردستان وتركستان وبكتريا وروسيا ، وكانوا يستخدمون الفيلة والعربات .

لقد مضى على هذه المعركة ٢٠٠٠ سنة تقريبا ، ومع هذا فان المدارس الحربية فى العالم مازالت تدرسها وتستشف من خططها فنون الحرب وبراعة القيادة .

الأوضاع والخطط

نظم داريوس جيشه على مهل فى مواقع دفاعية على شكل طائر ،كان القائد فى جبهة القلب على راس الرماحة ، ورماة النبال والجنود المحترفين - المرتزقة - وقد وضع امامه ٥٠ عربة و ١٥ فيلا ، وقد مد جناحيه ، فوضع فى الجناح الأيمن مشاة قوية تتقدمها ٥٠ عربة ، وفى الجناح الأيسر مشاة ثقيلة وفرسان وامامهم مائة عربة وألف فارس .

اما الاسكندر فقد نظم قواته بطريقة اخرى ويلاحظ انه اهتم بوضع احتياطى خلف جبهة القتال من الفرسان .

وضع الأسكندر فى القلب ست فرق مشاة ، وفى الجناح الأيسر مشاة وخيالة قوية وفى الجناح الأيمن ثمان فرق فرسان ، ومعهم حملة تروس المشاة ، وكان الاسكندر فى الجناح الايمن !.

وقف الخصمان على قدم الاستعداد ، وفى فجر اليوم بدا الأسكندر هجومه المفاجىء ، فتحرك الجناح الأيسر الفارسى نحو الجناح الأيسر اليونانى فأسرع الفرسان الى صدهم ، ثم تحركت العربات الفارسية والخيالة فانهزمت أمام حملة الحراب وضاعت هذه الهجمة القوية هباء ، وأخيرا وقع اكبر هجوم فارسى بالفرسان على جناح اليونان الأيمن - حيث كان الأسكندر نفسه - فصد ذلك الهجوم . وحتى ذلك الحين لم تكن جبهة الأسكندر قد تأثرت ، بل كانت تنتظر الفرصة المواتية ، وقد جاءت هذه الفرصة حين فتحت ثغرة فى صفوف الفرس بين الميسرة والقلب ، فاندفع اليها الاسكندر على راس حرسه واخترق الجبهة الفارسية واحاط بالميسرة بينما تقدمت المشاة حملة التروس فشغلت قلب الجيش الفارسى ... ونظر دارا فاذا جيشه قد تنكلت اوصاله وسحقته

الهزيمة فأطلق عنان حصانه وفر من الميدان قبل أن يقع فى الاسر . على حد تعبير الشاعر العربى .

بنفسك فر اذا ما شمت حتفا
وخل الدار تنعى من بناها

فر دارا رغم ان جيشه كان يقاتل باستبسال ويتبادل مع اعدائه ازمة الموقف بين وقت وآخر ، ولكن فرار القائد ضيع عزيمة الرجال فكانت الهزيمة .

وهكذا انتهت معركة اربيلا ، ونزع الاسكندر صولجان القوة عن هامة آسيا ثم استولى على بابل عاصمة أول امبراطورية فى الدنيا .. وبدات مرحلة جديدة من التاريخ .

أخلاق القادة

اخذ القائد المنتصر يلقى نظرة اخيرة على ميدان المعركة الكبرى التى كسبها وبدأ يلقى اوامره ، فكان فى مقدمتها ان تكون النساء فى مأمن ، وقد رفض الاسكندر أن يقابل زوجة خصمه داريوس — وكانت أجمل نساء زمانها — بل أمر بارسالها الى مكانها معززة مكرمة .

واتجه الشاب الظافر الى سوريا ففتحت أبوابها المنيعة ثم غزا فلسطين ومصر فى اواخر سنة ٣٣٢ ق م وخلصها من حكم الفرس وأعاد لها مكانتها الدينية القديمة واستقدم المهندس اليونانى دينوقراط فانشأ مدينة الاسكندرية ، عروس البحر ، وبذلك اثبت الاسكندر انه رجل اصلاح وعمران واثبت تاريخ عشرين قرن من الزمان بعد نظره ، وسيظل اسمه خالدا مع اسم الاسكندرية .

وفى مصر زار معبد فرعون ملتمسا العناية الالهية ، واعتبر

نفسه ابن الاله آمون ثم غادر مصر فى عام ٣٣١ ق . م الى صور حيث التقى بجيش دارا فى معركة كبرى قرب نينوى وواصل زحفه ففزا بابل وسوس وبلغ أقصى حدود الامبراطورية الفارسية .

فاتح الهند

بعد أن أخضع الاسكندر فارس اتجه الى تركستان ثم انحدر الى طريق هراة وقابل وممر خيبر مقتحما بلاد الهند حيث التحم فى معركة هائلة مع القائد الهندى « بوروس » وهزمه .

وقد سأل الاسكندر خصمه المهزوم بوروس عما يريد منه ؟

فقال بوروس : أريد أن تعاملنى معاملة الملوك .

فأجابه الاسكندر الى ما أراد ، وتركه ملكا على بلاده .

وعاد الفاتح الشاب ، والمصلح النابه ففكر فى ربط الشرق بالغرب عن طريق المزاوجة بين اليونانيين والفارسيين حتى تزوج فى ليلة واحدة عشرة آلاف فارسى ومقدونى ؟

وقد ذكر الدكتور طه حسين فى كتابه « قادة الفكر » ان الاسكندر لم يكن قائد جيش ، ليس غير ، وانما كان قائد فكر قبل كل شىء وفوق كل شىء ، وان تجربته لو تمت لغيرت وجه الأرض ولحولت سير التاريخ .

القائد الأفريقي :

هانيبال



وضع هانيبال خطته لغزو ايطاليا ، فقيل أنها مجازفة ، وجنون ، ومستحيل !

... ولكن هانيبال ركب المجازفة ، واستخدم الجنون ، وأراد المستحيل .. وغزا ايطاليا .

كانت روما سيدة العالم فى زمانه ، لا تستطيع دولة أن تواجه جبروتها ، كان مصير عدوانها الهزيمة تلو الهزيمة حتى جاء ذلك القرطاجنى الجسور ، والجندى العبقرى فأذاق جيوش روما مرارة الهزيمة ورسم على ثرى ايطاليا خطوط احدى المعارك التاريخية التى تدرسها المعاهد العسكرية منذ اجيال الى يومنا هذا وهى معركة « كانا » .

ان هانيبال هو أحد عظماء القادة فى التاريخ كله ، ويضعه بعض المؤرخين والثقاة فى راس القائمة ، وقد جعله نابليون — فى قائمته — ثانى قائد فى التاريخ ، بعد الاسكندر المقدونى ، ولا تخل قائمة من قوائم عباقرة القادة من اسمه ، فتجده فى قائمة نابليون ، وليدل هارت ، وويڤل وغيرهم من المعنيين بتاريخ القادة .

ومن العجيب أن هانيبال قد انتهى بهزيمة ماحقة قضت عليه وعلى بلاده ، قرطاجنة ، ومع هذا فقد وضع المؤرخون على رأسه تاج العبقرية العسكرية ولم يضعوه على راس هازمة ... أن سيبيو لم ينل واحد على عشرة من شهرة هانيبال ومجده الحربى .

كان أبوه هملكار جنديا وحاكما بأمره فى شمال افريقيا ، وكان لا يفتأ يرنو ببصره عبر البحر المتوسط ، ويتمنى لو استطاع يوما أن يرفع « تاج » العالم عن هامة روما ويجعله من نصيب قرطاجنة ... وقد حدث أن استعد للحرب ، وذهب يؤدى للالهة الصلاة والقرابين ، وفجأة لمع فى ذهنه خاطر ، فدعى اليه ولده هانيبال — وكان طفلا فى التاسعة من عمره — وسأله :

اتحب يا هانيبال أن تأتى معى الى ميدان الحرب ؟

فأجاب الفتى فى هدوء وثقة : نعم .

وارتدى الفتى ثياب الجنود ، واستمع الى راى ابيه فى روما ، وحكامها ، فصب هانيبال لعناته عليها واقسم امام ابيه على تحطيم قواتها .

ومنذ تلك اللحظة اصبحت كراهية روما عقيدته ، واصبح هو : اخطر عدو لروما .

ولم تكن قرطاجنة موطن محاربين ، ولكن تجار وبناة سفن وملاحين ، فلم تكن الحرب لعبتهم المفضلة ، وكانوا ينظرون الى روما كعملاق لابد من الخضوع له ، ولا سبيل الى النجاة من سطوته ، وكان هملكار ـ والد هانيبال ـ يعبئهم للحرب ، فنشأ هانيبال ـ فى جو التعبئة والاستعداد للحرب ، واخذ بطابع الجندية مبكرا ، واقبل على نظمها وتقاليدها بشغف ظاهر ، واخذ يتطلع الى قيادة الجنود وادارة المعارك .. وهو الشاب القوى الرياضى الذى اشتهر بين اقرانه بتفوقه فى العدو والملاكمة وركوب الخيل .

وهكذا نشأ معدا للقيادة منذ صباه ، معنيا بالحرب وادارة الرجال ، شغوفا بالعناء والمشقة ، فهو يستطيع أن يستغنى عن الأكل والنوم ما دام هناك عمل وجهد وخطر .. فكانت هذه هى عناصر القائد العبقرى .

وقد عرف الجنود جيدا وعاش بين ظهرانيهم وهو طفل ، فنشأ مفطورا على حسن المعاملة ودقة الادارة وحسن التدبير ، وكان ذواقة متمدينا .. وان قال عنه بعض المؤرخين الايطاليين انه كان قاسيا شريرا متعطشا للدماء .. ولكن التاريخ قال عنه كلمته الحقة وجعله فى مصاف عظماء القادة المثقفين ، فقد ترك كتابات تشهد بتذوقه للأدب الاغريقى والفلسفة ، وكان له أستاذ من أثينا يعلمه ويصقل عقله وروحه .

وفى الثانية عشرة من عمره راى القائد الشاب رؤى العين

مصرع والده ، وقائده ، وبعد لحظات كان قائدا للفرسان لمدة ثمانية سنوات تحت القيادة العامة التى عقدت لأخيه الاكبر هادسدروبال ... الذى لقى مصرعه فى ساحة القتال وسيفه فى يده .

واستقر راى الجيش القرطاجنى على تولية هانيبال القيادة العامة سنة ٢٢١ ق.م وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .

أصبح هانيبال قائد جيش بلاده فنظر نظرة المسئول واشاح بوجهه ؛ فقد كان الجيش خليطا من محاربين غير مؤمنين بأهداف الحرب ، فهم مرتزقة ، وليس يسعد القائد الاصيل ان يكون قائدا فحسب وانما أن يكون قائدا لجيش منظم ... **فأخذ هانيبال يعمل لتنقية الجيش وتطهيره وتصحيح أدواته ورفع معنوياته ، واستطاع ان يجعل منه جيشا نظاميا مدربا** ، وضاعف عدده وأصلح أداته وقاده الى غمار حروب كبرى ، بلا كلل ولا ملل ، فواجه روما ، صاحبة الحول والطول ، ورفع راية افريقيا فى قلب أوروبا .

الحرب دينه

فما هو سر هانيبال ؟

قال بعض المؤرخين ان هانيبال كان مطبوعا على ماكينة الحرب مدموغا بحاسة استراتيجية ، لم يتمتع بها غير عدد قليل من القادة فى جميع العصور .

وقالوا انه كان عارفا بالشعور والعواطف التى تعتمل فى نفوس الرجال فاستطاع أن يقودهم بنجاح ويستفيد من مزاياهم ويكسب خير ما عندهم .

ولهذا فقد استطاع ان يقودهم عبر البحار والأنهار والجبال ، وان ينفذ خططه الجهنميـة ، ويهزم بهـم جنرالات روما ذوى الفخامة .

وكانت له ملكة تقدير الموقف فى لحظات ، وفهم ما ينتظر ان يفعله العدو . كان يدرس الموقف بروح رئيس فريق الكرة فيعلم سلفا ما ينتظر من الفريق الآخر من تكتيكات وتوصيلات وخطط للشوط الثانى .

وكان هانيبال أول من « شغل » الجاسوسية ، كان استاذا فى فن الجاسوسية ، يبعث العيون والآذان ترصد تحركات القوم وتستطلع انباء مراكز القيادة ، وكان له اتباع وجواسيس فى صفوف اعدائه ... قبل أن يتحدث الجنرال فرانكو عن «الطابور الخامس» بعشرين قرنا من الزمان !

الحرب علمته

ان تدريبه المبكر ، ونشأته فى مقر قيادة والده نشأة عسكرية قاسيه وتمرسه بشئون الحرب من جميع نواحيها ... علمه ذلك كله كيف يعامل جنوده ويأمرهم ويحركهم ويقودهم الى المعركة ، كيف يواسى الجريح ويهدىء الثائر ويستحث الخامل : علمه ذلك كله **متى يلين ومتى يشتد ، وكيف يحفظ على رجاله روحهم المعنوية فى أشد الأزمات** ، فهو كان اداريا ومنظما وعالما بالنفس واستاذا فى فن القيادة .. ولهذا تبعه جنوده حيثما سار واطاعوه كما اشار ، فخاض بهم السهل والوعر والماء واليابسة ، وكان كما قال : (لا انظر خلفى مهما يحدث) !

لا شىء غير الهجوم

وقد عركته الشدائد وصهرته المسئوليات الجسام حتى جاء وقت معركته الكبرى واختباره النهائى امام روما ، وقد نشبت الحرب بين روما وقرطاجنة بسبب غزو القرطاجنيين لمدينة « سجنتوم » فى شرق اسبانيا ، فوجدت روما فى ذلك خطرا على ميزان القوة التى كانت تعتز به فبعثت الى غريمتها انذارا بالكف

من حصار هذه المدينة ، والا فانها تصبح فى حالة حرب معها ، وبعد ثمانية اشهر من الحصار سلمت سجنتوم ودخلها هانيبال ، وبدأ الحرب بين روما وقرطاجنة .

وكان رأى هانيبال ان الحرب هى الهجوم ، ولهذا قرر أن يبدأ بالهجوم على قوات روما ، فى عقر دارها ، فنظم ثلاثة جيوش خصص احدهما لحماية افريقيا ، والثانى لحماية اسبانيا ، وأخذ الجيش الثالث الى اعظم عملية عسكرية فى ذلك الزمان ... غزو ايطاليا ، وقهر « روما » .

وقال المؤرخون : ان هذه الخطة كانت المجازفة بعينها : او الجنون ، او المستحيل ، فلم يكن احد يتصور أن جيشا افريقيا يستطيع عبور جبال الألب التى لم يسبق لجيش عبورها ، ولكن هانيبال ركب المجازفة واستخدم الجنون وطلب المستحيل وغزا ايطاليا .

افريقى فى ايطاليا

تحرك الجيش القرطاجنى عبر البرانس ونهر الرون واكتسح الجول . ووصل الى جبال الألب ، وهنا فتح التاريخ صفحة ناصعة من صفحات المجد الحربى ، وكان عبور هانيبال لجبال الألب حدثا من اعظم الأحداث العسكرية فى جميع العصور .

لقد كان رجال هانيبال من اهل السهول لا المرتفعات ، وكانت احمال المشاة ثقيلة ولم يعتادوا الجو البارد وكانوا يستخدمون معدات الحرب الثقيلة ، وعددا من الفيلة لحمل الأثقال ... ولا ريب فى أن استخدام الفيلة كان عنصرا هاما للحملة ولكن المشكلة كانت فى كيف تعبر الفيلة الأنهار والجبال ؟

واذن فكيف بنى هانيبال « الافريقى » الكبارى وكيف مهد الطريق ، وكيف عبرت الفيلة الماء ـ وهى بطبيعتها تخافه ـ

وخاضت الشلالات ... لقد كان امام الحملة من المشكلات الادارية ما يفقد الامل فى تقدمها ، كانت هناك مشكلات المواصلات والتموين والجو القارس والطرق غير الممهدة . والجبال والشلالات والرعد والبرق والصخور .

ولكن المعجزة وليدة العبقرية ، وقد نجحت حملة هانيبال ، ووصلت قواته الكبيرة سالمة ٢٠ الف مشاة و ٦ آلاف فارس ، وفوجىء الرومان ، فقد وصل الافريقيون الى ارض ايطاليا !

اما هانيبال فاعطى جيشه راحـة قصـيرة وسرعان ما هب للنضال ، فأحدق بقوة رومانية فى « تيسنو » بفضل خفة الحركة ، فقد كانت معركة فرسان ، واعقب ذلك تحـركه بمشـاته نحو « تربيا » حيث هزم جيشا رومانيا كبيرا بعد مفاجاة بارعة ، وشرع يجتاز جبال الابنين لغزو اتروريا .

وحشدت روما قواتها تحت قيادة القنصل فلامينيوس قرب بحيرة تراسيمنس فماذا كانت خطة هانيبال ؟

ترك ثغرة امام مواجهة الجيش الرومانى تتجه نحو البحيرة . وحشـد قواته على جانبيها فى مواقع مخفية بعناية ، فلما تقـدم الرومان لم يلقوا مقاومة تذكر ، فظنوا انه النصر ، ولكنه كان القبر ... وهكذا قضى على جيش رومانى كبير ، ولم يكن هانيبال قد اظهر خير ما عنده .

كانـــا

وبدات معركة « كانا » التى تعتبر الى اليوم نموذجا لأروع ما انتجته القرائح العسكرية فى تقدير الموقف ، واحكام الخطـة ، ودقة التنفيذ ، واكتمال النجاح ، وبلوغ الاهداف .

كان الجيش الرومانى اكبر جيش حركته روما وقد بلغ ٧٦ الفا

بينما لم يبلغ جيش هانيبال نصف هذا العدد ، وانتهت المعــركة وانتهت معها حياة ٧٠ الف جندى رومانى !؟

فى هذه المعركة التاريخية اتى هانيبال عملا من اعمال عبقريته ، فقد كان للرومان السبق والاختيار والمباداة ، فصفوا قواتهم فى انسب اماكن للمعركة المرتقبة على ضفاف نهر افيدوس ، وكان هانيبال يحارب وظهره الى النهر ، فلو اصابته هزيمــة لانتهت العملية بكارثة ! وسرعان ما اسعفته قريحته وهداه نبوغه الجرىء وبراعته الاستراتيجية التى امتاز بها عن جميع القادة المشـاهير فى جميع العصور .

وضع هانيبال مشاته فى القلب وجعل الفرسان جناحيه ولكنه ترك أمام مواجهة العدو خطا ضعيفا من المشاة بينما جعل الجانبين ذوى كثافة ومنعة ، وبدأت قوات الوسط تهاجم مشاة الرومان الأشداء ، وبدا الرومان يضغطون بشدة فنجح ضغطهم وأخذوا يهجمون ويتقدمون فى قلب قوات قرطاجنة المهزومــة ، والنصر يرفرف على الرومان والنهاية تقترب بالفوز النهائى ... وهنا فى المكان والزمان المناسبين اعطى هانيبال اشارة الهجوم فتدافعت القوات من كل جانب وألقى الرومان انفسهم بين شــقى الرحى ودارت عليهم الدائرة ، وقطع الفرسان القرطاجنيين خط رجعتهم وأتموا حلقة الحصار وانتهت المعركة بانتصار تاريخى تام . واصبح هانيبال سيد الميدان فى معظم الأراضى الايطالية .

وقد سجل التاريخ لهانيبال بعد تلك المعركة مأثرة انسانية تدل على تاصيل روح الجندية العميقة فى نفسه ، وكان بعض المؤرخين الايطاليين يرمونه بالوحشية والفظاعة ، فاذا هو يحيى ويكرم قائد العدو الذى لقى مصرعه فى المعركة فأمر بتشييع جنازته عسكريا وودعه مع الاجلال والاحترام ... وهكذا كان هانيبال خصما عنيفا

ولكن خصما شريفا ، لا يحارب الا عدوا قويا ، ولا ينازل فى غير ميدان .

اما « كانا » فلم تكن نهاية الحرب مع روما ، ولم تكن نهاية ما يتطلع اليه هانيبال ، فهو لم يقف عند حد . فقد كانت فى اعماقه آمال كبار وليس مجرد انتصار هين ، كان يريد غزو روما ، نفسها ووضع قرطاجنة فى مكانها : سيدة العالم .

وشرع يشطر ايطاليا ، فبدأ بغزو الجنوب حيث كسب معركة تارنتوم . ثم اتجه نحو روما ، وكانت الجيوش الرومانية تنفذ خطة جديدة : تجمعت وعقدت قيادتها للقائد فابيوس مكسيموس ، وراحت تتدرب على اثار المعارك الغابرة وتتبع خطوات العدو دون أن تشترك فى معركة حتى تجهد قواته ويطول بها الترحال ويصيبها الملل .

وكانت خطة بارعة ، فقد بدأ جنود هانيبال يملون ، ولا يعرفون هدف حملتهم وقد تكبدوا المشاق وطال بهم البعد عن الأهل والوطن ، وقد نبهه أحد معاونيه « مارهربال » الى خطورة الموقف ، « انت يا هانيبال تستطيع أن تحرز النصر ولكنك لا تعرف كيف تفيد من انتصاراتك » !

ثم ماذا كان موقف أصحاب الشأن فى قرطاجنة ؟

انهم يكرهون هانيبال ويخشون من نتائج انتصاراته ظنا منهم انه سيعود يوما فيطردهم ويأخذ بمقاليد الحكم فى يده وحده ! وكانوا يضحكون من انبائه وطلباته !

وقد طلب ارسال الامداد والمؤن فرفضوا اية مساعدة ! وقد استطاع اخوه الأصغر هسدروبال أن يسير على رأس قوات من اسبانيا ولكنها هزمت فى الطريق قبل أن تصل اليه وقتل هسدروبال وارسل الرومان الى هانيبال رأس اخيه ، فكان ذلك ايذانا بمعركة لا رحمة فيها .

لماذا ضحك هانيبال

لقد بقى هانيبال ست عشرة سنة يهدد روما ويحرك قواته على ثرى ايطاليا ثم تغير الموقف وانتقل ميزان القوة من يد الى يد وولى قيادة الجيش الرومانى قائد المعى جديد هو « بيوبيلوس سيبيو » الذى قدر له ان يدخل من باب التاريخ فقد فكر فى هزيمة هانيبال بأسلوب لم يعهده من قبل ، فترك سيبيو أوروبا الى افريقيا وراح يهدد قرطاجنة ، فاضطر هانيبال أن يسارع الى وطنه والتقى بخصمه العنيد فى معركة من معارك التاريخ الفاصلة « زاما » ، ٢٠٢ ق٠م ٠

وفى هذه المعركة كان هانيبال يضع خططا بارعة من وحى عبقريته كما يفعل الفنان فى لوحاته الخالدة ، ويضرب ضرباته الاستراتيجية والتكنيكية كأستاذ معلم ٠ ولكن بز التلميذ استاذه ، واستطاع أن يهزمه ويرديه ... بفضل الكثرة العددية والروح المعنوية ، فقد كان الوهم يتطرق الى القرطاجنيين ٠ ولم تكن روحهم المعنوية فى مستوى قائدهم العبقرى ، فكسبت روما المعركة الأخيرة ٠

وانتصر سيبيو على هانيبال !

ولكن هانيبال بقى كنموذج للجندى الأصيل والقائد العبقرى ٠

ووقف هانيبال فى مجلس الشيوخ يضحك وهم يبكون ... يا لعدالة السماء ، اذ طالما بكى هانيبال اسى على اهمالهم فى مساعدته وكانوا يضحكون !

ان هانيبال لم ينهزم ، ولكن « الرؤساء » هزموا جيوشهم وبلدهم ٠

... وقال سيبيو

سأل سيبيو غريمه هانيبال ، بعد ان هزمه :

من هو اعظم جندى فى التاريخ ؟

فرد هانيبال : الاسكندر .

وعاد سيبيو يسأله : ومن اعظم جندى بعد الاسكندر ؟

قال هانيبال : انا .

وقال سيبيو : ان الرجل الذى هزمته هو اعظم قائد عرفه العالم .

والحكم ما حكمت به الأعداء .

سيف الله

خالد بن الوليد

لقد شهدت مائة زحف أو تزيد
وما فى بدنى موضع شبر الا وفيه
ضربة أو طعنة ، وها أنذا أموت على
فراشى حتف أنفى ، كما يموت العير ،
فلا نامت أعين الجبناء ..

(خالد)

نشأ خالد فى بنى مخزوم ، وكان والده من السادة المعدودين فى قريش ، ولم يكن نور الاسلام قد اشرق بعد ، فنشأ خالد فى الجاهلية وحارب فى صفوفها ، ثم اضاء الله قلبه بالاسلام فى شبابه ، فصار سيفا من سيوف الله سله على المشركين .

وقد عرف خالد الحرب يافعا ، وخاض غمارها بشجاعة فائقة وحارب ضد المسلمين فكان العدو المتمكن ، ثم حارب مستظلا براية الاسلام ، وقائدا لقوات المسلمين ، فأظهر من البراعة فى خططه والشجاعة فى تنفيذها ما يجعله فى مصاف عظماء القادة ، فخالد بن الوليد يجب أن يعتبر مثلا أعلا يتجه اليه شباب العرب فى دراساتهم ومراجعهم ، فيجدون فى سيرته وصفاته وعبقريته خير ما يمكن الاقتداء به والسير على منواله .

بطل أحد

نشأ خالد نشأة شباب البادية ، صحيح الجسم ، مهيب الطلعة متفوقا فى ركوب الخيل شجاعا مقداما ، وورث قيادة « الأعنة » ، ـ وهى بمثابة قيادة الفرسان ـ حتى أصبح قائد فرسان قريش فى وقعة « أحد » ضد المسلمين ، وقد أبدى فى هذه الوقعة براعة وجسارة ، فلما سنحت له فرصة ، ووجد فى صفوف المسلمين ثغرة ، قام بهجمة مضادة خاطفة ، فاخترق الجبهة ودار حولها واحدث فى المسلمين خسائر فادحة فانقلب ميزان المعركة ، وانتقل النصر من عسكر الى عسكر ، وجرت معركة دامية رهيبة لكثرة ما سال فيها من دماء وما قضى بسببها من رجال ، حتى أشيع أن محمدا وابا بكر وعمر قتلوا وأن النصر انتهى فى جانب المشركين .. ولكن قوات المسلمين افاقت من المفاجأة ، وحاربت بايمان وبسالة وتم لهم الفوز بعد عناء .

كذلك كان خالد مصدر قوة فى صفوف المشركين ، وكاد ان يحرز لقومه الغلبة فى معركة الخندق ، ثم دخل فى دين الله ، فكان ذلك بشيرا له بالمجد ، وواتته الفرصة لقيادة جيوش الاسلام فى غزوات كبرى ابدى فيها مهارته وعبقريته ما جعله من عظماء القادة فى التاريخ كله .

سيف الله

تلقى خالد من اخيه رسالة يدعوه فيها للاسلام ، ويروى أن رسول الله صلوات الله عليه قال ، ما مثل خالد يجهله الاسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدمناه على غيره :

واسلم خالد ، وقال :

« يا رسول الله ، قد رايت ما كنت اشهد من تلك المواطن عليك معاندا عن الحق ، فادع الله ان يغفر لى » .

فأجابه النبى عليه السلام : ان الاسلام يجب ما كان قبله ، « الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا ، ورجوت الا يسلمك الا للخير » .

وأصبح خالد فى صفوف المسلمين يواجهه رفقاء الامس فى جيوش المشركين فيرمونه ويرميهم حتى تم للاسلام النصر المبين ، ثم حارب خالد عرب الجزيرة وعرب العراق والشام . وجيوش الفرس والروم ، فاتسع مجال قيادته ، وازداد اشراق عبقريته .

القيادة البصيرة

كان اول قتال يشترك فيه خالد بعد اسلامه هو حملة « سرية مؤتة » التى جردها الرسول عليه السلام الى البلقاء لتاديب المعتدين

الغسانيين وفى هذه المعركة استشهد القادة الثلاثة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن ابى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، فاجتمعت الكلمة على تنصيب خالد بن الوليـد قائدا . وقد نظر فاذا هى معركة غير متكافئة وقد منى المسلمون بالهزيمة وكثر عليهم اعداؤهم ، فلم تملكه فطرة المجازفة ، وانما ملكته فطرة القيادة البصيرة فاصطنع الاستعداد للهجوم ، وأوقع فى روع عدوه انه سيقاتل من غده ، فلما كان الغد كان جيش المسلمين قد قام بعمليةانسحاب متقنة وارتداد مأمون ، ونجا مما كان قد ألم به من هزيمة وضياع .

وقد امن خالد جيشه عند انسحابه بقتال المؤخرة حتى يضمن له السلامة ، وأبلى فى ذلك القتال حتى اندقت فى يده تسعة سيوف وعرف من ذلك اليوم بلقبه الذى أضفاه عليه النبى وهو : سيف الله

غزوة حنين

نفرت قبائل « حمدان» من هوازن وثقيف وجشم ، وقامت الى شق عصا الطاعة ، واعدت العدة لمواجهة المسلمين ، وولت قيادتها فتى جريئا فى سن الثلاثين هو : مالك بن عوف النضرى الذى خرج بالقبائل بكليتها اى برجالها ونسائها وأبنائها وممتلكاتها لكى يجعل المحاربين يتماسكون ذودا عن أهليهم وأموالهم ، ويقاتلون قتـــالا باسلا مستميتا .

وفى المعسكر الآخر ، كان خالد على طليعـــة الجيش فى مائة فارس .

وجاء فارس (من المخابرات) يقول : انه صعد جبـلا ، فاذا بهوازن على بكرة أبيها بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا الى حنين .

فتبسم الرسول وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا ان شاء الله وارسل « نقطة ملاحظة » فى اعلى الجبل . ودعا افرادها الى النقطة

ثم جاء اليوم الثانى فقال انه لم ير أحدا من العدو ، فبعث الرسول مقدمة ، وفجأة قام العدو من مكمنه الذى احسن الاستتار فيه وهاجم بشدة وكسب الجولة الأولى من القتال بفرار الخيل والجمال ولحاق المشاة بهم ، وكادت الهزيمة تتم لولا أن تقدم الرسول بشخصه الكريم وثبت فى هذا الهول الجارف واخذ زمام المعركة كلها فى يديه فتجمع حوله المقاتلون واستبسلوا فى القتال ، وبدأوا الكر بعد الفر وهانت النفوس . وفى هذه المعركة سقط خالد مثقلا بالجراح .

وقد أوشك المسلمون ان ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم ، ومن ناحية أخرى فان عدوهم كان ماكرا ، بدا يحشد الروح المعنوية الى اقصاها ، ثم استخدم المفاجاة فكانت له الغلبة ، وقد وصفت هذه المعركة فى القرآن الكريم :

« ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » .

وعلى الرغم من هذه الهزيمة التى كادت تودى بجيش المسلمين لولا أن تداركته العناية ، لقى خالد تقدير النبى عليه السلام ، فبارك له وواساه .

حروب الردة

اشترك خالد فى حروب الردة من أوائلها الى نهايتها ، وكانت البادية قد ارتدت عن الاسلام بعد وفاة محمد عليه الصلاة والسلام ووقفت المدينة تساندها مكة وجيرتهما تدافع عن حياضها وعن عقيدتها ، فأوهنت هجمة المرتدين الأولى عن معقل الاسلام ، وكان عنصر المفاجأة مدار هذه المعركة ، فكان المرتدون يتوقعون لقاء الجيش فى المدينة ، ولكن الخليفة كان قد خرج بمن معه فى الليل على تعبئة كاملة ، وهبط على المرتدين وهم على غير اهبة ، فلم يلبثوا حتى انهزموا وتفرقوا .

ثم كان لخالد نصيب القيادة على الحملة الموجهة الى «بزاخة» لقتال المرتدين وقد ودع الخليفة هذه الحملة فقال : « أيها الناس ، سيروا على اسم الله وبركته ، فأميركم خالد بن الوليد » .

واسر الخليفة الى خالد بأوامره : فقد كان اسمه بشيرا بالنصر « .. فاذا دخلت ارض المعركة فكن بعيدا عن الحملة فانى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة واحرص على الموت توهب لك الحياة ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فان للعرب غرة .. واذا لقيت أسدا وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك وبعضهم لا عليك ولا لك ، متربص السوء ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة .. سر على بركة الله » .

أما جيش طلحة فقد امتاز بكثرة العدد والسلاح وباختيار الأرض فهو فى موقف دفاعى ينتظر جيش خالد الذى يقطع الفيافى قلما التحم الجيشان ثبت طلحة وأصحابه ثبات المستميت وكروا على المسلمين كرة عنيفة فكشفوا الميمنة ثم الميسرة حتى لاح لهم النصر وجاء بعض رجال خالد ينصحونه بالتراجع ليعتصم بجبال طىء ، فقال خالد : « لا أعتصم بغير الله » .

هازم الفرس والروم

خرج العرب للقاء الفرس والروم ، فكانت معركة أحد طرفيها اليقين والعزيمة ، وطرفها الآخر الكثرة والهيبة .

حارب خالد الفرس فى خمس عشرة موقعة لم يهزم ولم يخطىء ولم يفشل قط فى واحدة منها ، وكان يسير بجيشه دائما على تعبئة كاملة فيقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئا أو غير مفاجىء ، وكان — كما

وصفه عمرو بن العاص – « فى اناة القطاة ووثبة الاسد » فلا يهمل الحيطة ، ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة.

وكان خالد يعمل بمبادىء الحرب – قبل نابليون بمئات السنين – فهو يكون فى كامل (الحشد) فى الزمان والمكان الحاسمين وهو لا يسرف فى استخدام رجاله . فاذا كان الف رجل يغنى عن الفين بعث بهم مطبقا مبدأ « الاقتصاد فى القوة » ، وهو يبعث العيون والطلائع ، ويرسل المقدمة ، أو يضع رجالا فى أعلى الجبل قاصدا « الوقاية » وهو يقبل على الموت بروح هجومية غلابة ، لعلمه بأن النصر يتطلب « الأعمال التعرضية » ثم انه يوحى الى خصمه بغير ما ينوى حتى يستخدم « المفاجأة » .

ومما يذكر لخالد فى مقام الثقة بالنفس ، وهى من دعائم القيادة ، انه كتب لقائد الفرس قبل المعركة يخيره بين الاسلام او الجزية أو الحرب ، ويقول : « جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

فلما طلب قائد الفرس مبارزته نزل اليه خالد وصرعه فى الحال.

وعندما التقى الجيشان انتصر العرب فى وقعة « ذات السلاسل » وهرب الفرس ، ثم اشتبكا فى وقعة القار التى بلغ قتلى الفرس فيها ثلاثين الفا وهرب الباقون ، وكان ذلك نصيب غيرهم فى وقائع « الوجه » و « اليس » و « الفراض » مع وقائع حرب العراق التى قضت على نفوذ الشاهنشاه الأعظم !

وقال ابو بكر : « عقمت النساء أن يلدن مثل خالد » .

وقال فى موضوع آخر : لانسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد .

قاهر هرقل

خرج خالد على رأس عشرة آلاف محارب من الحيرة وشق بادية العراق وهى مفازة « لا يصاب فيها ماء ، مع مضلتها » فقطع المسافة فى ثمانية عشر يوما ، وكان يطوى مسافة اليومين فى يوم واحد .

وقد اختار خالد اطول الطرق واشدها صعوبة ، وابعدها عن تصور العدو ، لكى يضمن عنصر المفاجاة ، ولكن لا يتعرض لمعترض من اهل العمران على الطرق الأخرى الميسورة .

وكانت المعركة الأولى فى اجنادين ، والمعركة الكبرى فى اليرموك وهى من اشهر الوقائع الفاصلة فى حروب العرب . تولى خالد بن الوليد قيادة الجبهة العربية ، وعمل تحت قيادته قواد الجيوش الاربعة التى اعدها الخليفة ابو بكر لفتح الشام .

ووقف الجيش العربى عند اليرموك فى مواجهة جيش الروم واستعد كل من الفريقين لمعركة فاصلة .

قبل أن يبدأ التحرك للمعركة قال خالد بن الوليد لقواد جيوشه :

« هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فان هذا اليوم له ما بعده ... »

« يوم له ما بعده »

كان هذا هو وصف القائد العربى اللماح ليوم معركة اليرموك فانتصار الجيش الاسلامى معناه أن ترتفع راية الاسلام والعروبة على ربوع الشام وفتح الطريق للدعوة الى جميع بقاع امبراطورية الروم الشرقية .

اما هزيمة الجيش الاسلامى فمعناه ضياع اكبر قوة عسكرية

مدربة ومعززة بمشاهير الثوار مما يغرى جيش الروم بغزو الجزيرة العربية وتعريض الدعوة الاسلامية للنكسة .

وأما هزيمة الروم فى اليرموك فتعنى الفصل فى مصير الشام ومصير دولة الروم وانتزاع بيت المقدس ودخول مصر فى الوطن العربى ، ولهذا بلغ استعداد كل فريق غايته ، وانتظر كل منهما حركة الفريق الآخر فى حذر .

وضع خالد خطة عملياته على اساس أن يبـدأ الروم بالهجوم فاذا ما تبددت الهجمة الأولى تبـدأ عملية تثبيت بالمواجهة بينما يجرى الالتفاف على الجانب الأيمن ، فاذا ارتد العدو أمكن للجناحين الاطباق عليه كما يفعل طرفى الكماشة .

معنى هذا انه وضـــع قوة فى الوسط لتلقى هجوم الروم ، ويتولى قيادة هذه الجبهة أبو عبيدة وجعل على الميمنة قوات خفيفة يقودها عمرو بن العاص وعلى الميسرة قوات مماثلة يقودها أبو سفيان .. وجعل القيادة العامة بمثابة احتياط وعمق معد للتحرك السريع لتعزيز النجاح أو انقاذ موقف .

واتخذ خالد نظام الكراديس أى المجموعات وعلى راس كل كردوس احد المناضلين ذوى الخبرة ، وكانت هذه اول معركة تنظم فيها الجيوش العربية تنظيما جديدا ، لا يقوم على اساس الأوضاع القبلية ولكن على اساس العناصر اللازمة لكل مجموعة والترتيب المناسب لاحتياجات المعركة .

وكان رايه فى ذلك ان العدو قد كثر وطغى وليس اكثر فى العين من نظام الكراديس .

وعنى خالد باستنهاض الهمم وشحذ العزائم فجعل ابا سفيان يتنقل بين الكراديس يشجع المجاهدين ويستثير حميتهم وجعـل

المقداد يقرأ من سورة الأنفال وجعل رئيس كل كردوس ينشط عزائم رجاله ويقدم اليهم التوجيهات وينقل اليهم ما خطر لعمرو بن العاص :

« غضوا الابصار واجثوا على الركب واشرعوا الرماح فاذا حملوا عليكم فانهلوهم ، حتى اذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد . فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم فانهم لو صدقتم الحملة تطايروا تطاير الحجول .. »

وكان لنساء المسلمين دور فى المعركة ، فقد جئن مع الحملة واتخذن موقعا خلف الصفوف حتى يعلم المجاهدون حماة الاسلام وطلاب الشهادة انهم يدافعون عن العرض والشرف والدين ، فلا تكون رجعة ولا ارتداد وانما استماتة واستقتال .

ودارت رحى المعركة بهجوم الروم هجوما عاما بالفرسان والمشاة على وسط الجيش العربى ، فكانت صدمة ترنح لها التشكيل وهزة اعترت الميدان كله فتراجعت كراديس الوسط أمام شدة الهجوم وانطلاق الفرسان وفتحت ثغرة فى صفوف العرب .

ولما بلغت الصدمة مداها واحدثت ما أحدثت من تخلخل وانكسار وبدأت وهجة المفاجأة تتلاشى تجمع العرب فى وجه تيار الهجوم وانتفض الحماس بعدد يبلغ أربعمائة مجاهد فبايعوا على الموت وانقضوا فى معمعانة فذهبوا بين شهيد وجريح حتى حل الثبات محل الهرج وتماسك الصف العربى واشتدت روح المقاومة والصدام .

ونظر خالد فاذا فرسان الروم ، وقد استخفهم النصر يسارعون فى عملياتهم فأوجد ذلك ثغرة بينهم وبين المشاة ، وكانت فرصة خالد الذى انقض بقواته بين الفرسان والمشاة واقتحم الى قلب قوات الروم فعدل ميزان المعركة وحمى وطيس القتال وانطلقت

السهام والرماح ، ووجلت الخيول واضطربت مشاة الروم وانقلب الموقف تماما فى اخريات اليوم وشمل الميدان كله اهتزاز تحت اقدام الروم فسقطوا ولاذوا بالفرار ، والمجاهدون العرب وراءهم بالمرصاد وقد اشتد حماسهم وتوالى تقدمهم وبدا النصر قاب قوسين او ادنى .

ووصلت الاخبار الى هرقل وكان جد مشغول منذ دارت رحى الحرب فلم يستطع ثباتا ولم يقدر على اصدار امر الدفاع والمقاومة وانما سارع الى عاصمة ملكه واصدر امرا بالمقاومة والثبات فى « خمص » كمحاولة لوقف تيار الانقضاض العربى ، ولكن كما ذكرت المراجع القديمة ـ كان قد سلم بالهزيمة وانه ودع سوريا وداعا اخيرا تمثل فى قوله :

« سلام عليك يا سوريا سلاما لا لقاء بعده » .

وهكذا لم تمض على معركة اليرموك سوى يوما وليلة حتى قضى فيها بالنصر للعرب والهزيمة والارتداد للروم ، وفتحت دمشق ابواب حصونها للمسلمين بعد حصار دام شهرين فدخلوا غواطها حيث السهل الفسيح والأنهار الجارية والأشجار والأعناب والرياحين وبعدها تم الاستيلاء على حمص وحماة واللاذقية وقنسرين .

وفى اواخر سنة ١٥ هجرية دخل المسلمون بيت المقدس .
وكأنما حقق العرب امر الخليفة ابى بكر بحذافيره ، اذ كان قد كتب لأبى عبيدة قبل فتح الشام يقول :

« اما بعد فابداوا بدمشق فانهدوا لها ، فانها حصن الشام وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم اهل (فحل) بخيل تكون بازائهم فى نحورهم ، فان فتحها الله قبل دمشق فذلك الذى نحب وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ،

وانطلق انت وسائر الأمراء حتى تغيروا على (فحل) فان فتح الله عليكم فانصرف انت وخالد الى حمص ، وضع شرحبيل وعمرا بالاردن وفلسطين » .

وكان الذى حدث بعد فتح دمشق ان صارت قاعدة للجيوش العربية تحت قيادة ـ يزيد بن ابى سفيان ، وزحف شرحبيل الى (فحل) فغلبوا الروم عندها ، وتقدم ابو عبيدة ومعه خالد فاستولى على حمص وحماة واللاذقية ثم دخل خالد « قنسرين » . بينما زحف عمرو بن العاص فحاصر بيسان حتى طلب أهلها الصلح ودخل شرحبيل طبرية ، وتابع عمرو زحفه فدخل « اجنادين » وسقطت مدن « فلسطين » : يافا ونابلس وعسقلان وغزة وعكا ، ثم حاصر بيت المقدس واضطرت حاميته للتسليم بشرط أن يكون ذلك على يد عمر بن الخطاب الذى أقبل يحف به قواده العظام فأعطى الأمان وسلمت له المدينة المقدسة فمنحها الحرية الدينية والعدالة والسلام .

وهكذا حققت معركة اليرموك غايتها الكبرى وتم فتح الشام ورفرفت عليه راية الاسلام والعروبة .

وبهذا تعتبر معركة اليرموك من معارك الاسلام الكبرى .

وقد كشفت معركة اليرموك عن كثير من الدروس والعظات وسجلت فصلا باهرا فى القيادة ينبغى أن نحتفل به ونقدمه عنوان مجد وفخار للجندية العربية والنقاء العسكرى الاسلامى .

عندما ظهر للخليفة ابى بكر ان المعركة التى كانت مرتقبة فى الشام ستكون معركة ضارية وفاصلة راى ان يعهد بالقيادة العامة لخالد بن الوليد وانتقل خالد على جناح السرعة من العراق الى الشام وتسلم الموقف وباشر مهام قيادته ووضع الخطة وحرك القوات للعمليات وكسب المعركة .

وحدثت مفاجأة تبدل لها الموقف فى القيادة العامة .

مات الخليفة ابو بكر وتولى الخلافة عمر بن الخطاب .

وقد قرر عزل خالد وتولية ابى عبيدة قيادة الجيوش فى المعركة الدائرة الرحى .

ووصل القرار الى ابى عبيدة فكتمه حتى انجلى الموقف وظهرت علامات النصر ، فأبلغه الى خالد الذى تلقاه بثبات ونزل عن القيادة لابى عبيدة .

انها حادثة القيادة فى التاريخ كله وابلغها درسا واجلها مقاما .

فان القائد المنتصر قد صدر قرار عزله وهو ينظر مصارع خصومه ويرفع الوية انتصاره فلم يبد عليه اى تأثر او انحراف او ضيق وانما اطاع الأمر فى الحال ونزل عن القيادة بكل ارتياح ولم يطلب المعاش أو العودة الى بلده وانما استمر تحت قيادة القائد الجديد يوجهه الى دوره ووفق احتياجات المعارك .

والقائد الجديد لم تسكره الفرحة ولم يعجل باستلام القيادة وانما كتم السر حتى اقترب النصر ، ثم أعلن الخبر لصاحبه ، على استحياء .

وهكذا قال لنا خالد بن الوليد : ان أول واجب على الجندى هو اطاعة الأمر وعلى الفور ، وبدون تردد .

وقال لنا أبو عبيدة : ان القيادة مسئولية وليست غنما ولا جاها ولا شهرة .

وقال عمر : رحم الله ابا بكر كان اعلم منى بالرجال .

وقال لخالد : ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس فخفت ان تفتتن بالناس .

.. وهذا درس عظيم القيمة لجميع القادة ، من كل الاجناس وفى كل الأزمان .

وقد بلغ خالد فى معـركة اليرموك قمته العليا التى لا مرتقى بعدها لراق .. قمع فتنة الردة ، وضرب دولة الأكاسرة ، ووحد قيادة المسلمين وهزم الرومان ، وكان صاحب دور تاريخى يضعه بين عظماء القادة .

وهو قائد لم تنقصه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال وهى : الشجاعة والنشـاط والجلد وحضور البديهة واليقظة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير .

وقد نفذ خالد مبادىء الحرب قبل ان يعرفها القادة فى عهود المدنية الحديثة ، فاذا ذكرت أسماء الاسكندر وهانيبال وقيصر ونابليون .. فارجعـوا الى تاريخ العرب واذكروا مع هؤلاء .. أو قبل هؤلاء .. خالد بن الوليد .

القائد القوى الأمين

أبو عبيدة بن الجراح



قائد من الطراز الأول ، وبطل من أبطال العروبة والاسلام وصفه النبى صلى الله عليه وسلم بانه ((القوى الأمين)) وقال عنه : ((أبو عبيدة أمين هذه الأمة)) .

موقفان فيهما غنى عن الكثير من أمثالهما فى حياة هذا الجندى الكبير والمسلم العظيم ، ينمان عن ايمانه وامانته ، ويكشفان عن متانة تكوينه وعظمة نفسه وعلو همته .

فى الموقف الأول نرى أبا عبيدة قائدا لجيوش المسلمين فى الشام - على عهد الخليفة الصديق - وقد طالت الوقفة عند « اليرموك » فقرر ابو بكر ان يقوم بعمل حاسم ضد الروم وقال : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » وبعث خالدا من العراق الى الشام اميرا على مجموعة الجيوش العربية ، فصدع ابو عبيدة بالأمر وتقبله بالرضا وحارب تحت أمرة خالد وقال انه غير مفتون بالدنيا .

وفى الموقف الثانى نرى أبا عبيدة أحد قواد خالد فلما ولى الخلافة عمر بن الخطاب قرر عزل خالد فبعث الى ابى عبيدة أمرا بتعيينه قائدا عاما ، فأخفى أبو عبيدة الخبر وصار فى مكانه خلف خالد حتى ظهرت مقدمات النصر ، وقد سئل عن عدم أخذه بلواء القيادة على الفور ، فقال : « ما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل » .

أمين الأمة

نشأ أبو عبيدة فى الجاهلية عزوفا عن طباع أهل الجاهلية ، ولم تعرف عنه سوءاتهم وسقطاتهم ، فكان شابا مستقيما مفكرا أمينا ، اشتغل بالتجارة فجاب الأقطار وبرز بين أقرانه موفور النعزة نظيف السيرة صافى الروح ، حتى اذا أشرق فجر الاسلام تفتح له قلبه وطابت نفسه وأسرع الى صديقه أبى بكر يستمع اليه ويفكر معه ، فتكشفت له حياة الجاهلية بضلالها وكفرها ، وظهرت له الدعوة المحمدية بجلالها وطهارتها ، فلما سأله أبو بكر :

يابن الجراح ، هل اهتدى قلبك ، واهتدى عقلك ؟

قال : اجل ابا عبد الرحمن « هنا بنا الى صاحبك ، فانه ليدعو الى الخير وانه لرسول رب العالمين » .

ودخل أبو عبيدة فى دين الله ، « وكان ثامن من اسلم » ، وصاحب الرسول مصاحبة الحب الكامل والامتزاج التام ، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « لكل امة امين ، وامين امتى ابو عبيدة » .

الهجرة الى الحبشة

اهتزت الجزيرة العربية لخبر الدعوة المحمدية ، وهاجت قريش وأمعنت فى العدوان فصارت تضطهد المسلمين واوغلت فيهم تعذيبا وتشريدا واعتداء فرأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يهاجر المسلمون الى مكان امين حتى ينجوا بدينهم ويضيعوا على خصومهم فرصة القضاء عليهم فبدأت الهجرة الى الحبشة وكان فى مقدمة المهاجرين ابو عبيدة وعثمان بن عفان والزبير بن العوام ، وقد حملوا الى النجاشى رسالة الاسلام فطمأنهم وآواهم وجعلهم فى حمايته ، وبقى أبو عبيدة فى الحبشة حتى تمت هجرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المدينة وتبلورت الثورة الاسلامية ونزلت آيات الجهاد ، فعاد الى المدينة وهى تستعد لأولى طلعات الجهاد فى معركة بدر الكبرى :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » .

من الموعودين بالجنة

دخل أبو عبيدة المعركة مكتمل العقيدة ، موفور الايمان ، واندفع فى معمعاتها يعمل سيفه فى أعداء الله ، فأبلى خير البلاء ،

وتعرض لموقف شاذ وعجيب تأرجحت نفسه بين الواجب والعاطفة واختبر ايمانه وامتحنت عقيدته ، فقد وجد اباه فى مواجهته : الابن فى صفوف المسلمين والأب فى صفوف المشركين .

ونظر أبو عبيدة ، فاذا ابوه مقبل عليه يعتزم الالتقاء به والقضاء عليه فيا لرهبة الموقف ، ويا للحادثة الشنعاء التى لا مندوحة عنها .. ورأى الرجل المؤتمن النبيل جلال الأبوة ورهبة الدم فنأى عنه جانبا ، ولكن عبد الله بن الجراح كان ساخطا على الدعوة ممعنا فى محاربتها ، حانقا على ابنه الى ابعد الحدود ، حتى لقد صمم على قتله بيده .

والتقى الابن والأب فى معركة فريدة من نوعها ، معركة أحد طرفيها ابن مسلم بار ، وطرفها الآخر أب وثنى جاهلى لا يعرف الرحمة ، والتقى السيفان ، ومزق أبو عبيدة قلب والده ، فضرب أروع الأمثال ونزلت الآية الكريمة :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » .

فى مركز الخطر

كان أبو عبيدة يحارب عن عقيدة ، فهو لم يسع قط الى مغنم شخصى ولم يفكر فى أن تكون له قيادة أو رياسة ، بل كان تفكيره وجهاده ، وعمله كله لله ولنصرة دين الله ، فاما أن ينتصر واما أن يلاقى ربه شهيدا . وهذا هو سر بطولة المسلمين الأوائل ومن اجله كانوا يندفعون فى القتال بلا رهبة ولا خوف ، فكان أبو عبيدة، فى مركز الخطر اقرب ما يكون الى العدو ، فلما دارت على المسلمين الدائرة فى أحد ، وانفلت زمام المعركة وكادت النكبة تحل ، ظهر

ابو عبيدة فى ساعة الشدة جنديا جبارا ، واندفع الى جوار النبى يدفع عنه الأذى ويتلقى عنه الضربات ، ويقدم نفسه فداء .

قال ابو بكر « لما كان يوم احد ورمى رسول الله فى وجهه حتى دخلت فى وجنتيه حلقتان من المغفر ، فاقبلت أسعى الى الرسول ، وانسان قد أقبل من المشرق يطير طيرانا فقلت اللهم اجعله طاعة حتى توافينا الى رسول الله ، فاذا ابو عبيدة قد بدرنى قائلا : « أسألك بالله يا أبا بكر الا تركتنى فأنزعه من وجنة رسول الله ، فأخذ أبو عبيدة بثنيته احدى حلقتى المغفر فنزعها وسقط على ظهره وسقطت ثنيته ، ثم أخذ الحلقة الثانية بثنيته الأخـــرى فأخرجها وسقطت ثنيته ، فكان ابو عبيدة فى الناس اثرم . وكان احسن « أهتم » .

تطاوعا ولا تختلفا

وكان أبو عبيدة من ابطال السرايا ، بعثه رسول الله ومعــه أربعــون رجلا الى ذى القصـــة فغاب ليلتين ، وعاد بأسرى ونعــم ومتاع .

وذهب لامداد عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل ، وكان رسول الله قد عقد له لواء ، وجعل معه سراة المهاجرين والانصار فى مائتين وامره أن يكون وعمرو معا فلا يختلفا فلما لحق بعمرو أراد ابو عبيدة أن يؤم الناس فقال له عمرو : انما قدمت مددا لى وليس لك أن تؤمنى وانا الأمير فقال المهاجرون وفى طليعتهم ابو بكر وعمر : بل انت امير اصحابك ، وابو عبيدة اميرنا فقال عمرو : انما انتم امددت بكم فانا القائد .

وهنا حسم أبو عبيدة الموقف فقال فى سماحة ورضا :

« انظرن يا عمرو ، تعلمن أن آخر ما عهد الى رسول الله أن

قال : اذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا ، وانك والله ان عصيتني لأطيعنك » .

القوى الأمين

قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عامين من الهجرة وفد نجران من المسيحيين ذوى الشأن يبحثون معه الموقف فعرض عليهم الرسول الاسلام وقرأ عليهم القرآن ، ودارت أحاديث حول العقائد ، ثم طلبوا من الرسول أن يبعث معهم رجلا من أصحابه قويا أمينا يأخذ له الحق ويعطيناه ويحكم بيننا فى أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا فانكم عندنا رضا .

فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : ائتونى العشية ابعث معكم القوى الأمين .

وروى ابن هشام أن عمر بن الخطاب كان يقول : ما أحببت الامارة قط حبى اياها رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت الى الظهر مهجرا ، فلما صلى بنا رسول الله ونظر يمنة ثم يسرة فجعلت اتطاول له ليرانى ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة فدعاه فقال : « اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه » .

فكان هذا الاختيار شهادة نبوية لم يلقها أحد غيره ، وما كان ذلك الا لأن ابن الجراح جمع بين الأمانة ولين الجانب ورضى النفس .

اتته الخلافة

لما انتقل النبى صلوات الله عليه الى الرفيق الأعلى بدات مرحلة دقيقة فاصلة فى تاريخ الاسلام والمسلمين .. واهتزت الجزيرة لهذه الطامة الكبرى ، واضطربت الأفكار وحارت فيما سينتهى اليه الأمر ، واجتمع المهاجرون والأنصار يوم السقيفة ودارت المحادثات

فيمن يخلف النبى صلى الله عليه وسلم فدعا الأنصار الى ان تكون الخلافة لزعيمهم سعد بن عبادة ، ثم قال قائل : منا امير ومنكم امير ، وبلغ ذلك الصحابة ، فانطلقوا جميعا الى سقيفة بنى ساعدة لحضور أخطر مؤتمر فى تاريخ الاسلام .

وأتى عمر بن الخطاب ابا عبيدة بن الجراح فقال : « ابسط يديك لابايعك » فأنت امين الأمة على لسان رسول الله .

فقال ابو عبيدة لعمر : ما رايت لك فهة « اى سقطة » قبلها منذ اسلمت .. اتبايعنى وفيكم الصديق وثانى اثنين ؟

فأرسل عمر الى أبى بكر وابلغه ما كان من اتجاه الانصار الى تولية سعد بن عبادة وقول أحدهم : منا امير ومن قريش امير .

قال ابو بكر : لقد رضيت لكم احد الرجلين « عمر ـ وابو عبيدة » ..

اما ابو عبيدة : فسمعت رسول الله ـ صلى الله عليم وسلم ـ يقول : « لكل امة أمين وأمين هذه الأمة ابو عبيدة بن الجراح » وأما عمر فسمعت رسول الله يقول : « اللهم ايد الاسلام بعمر او بأبى جهل » .

ثم اخذ أبو بكر بيد عمر وبيد أبى عبيدة ، ولكن أحد الانصار قال :

« منا أمير ومنكم أمير » وانتضى سيفه وهتف « نحن اهل العزة والثروة وأولى العدد والمنعة والتجربة وذوى الباس والنجدة .. » .

وهنا وثب اليه عمر واسقط من يده السيف .

وبدا ابو عبيدة يتكلم ـ وكانت له هيبة ومحبة ـ فقال :

يا معشر الانصار ، كنتم اول من نصر وآزر ، فلا تكونوا اول من بدل وغير .

واستدرجهم ابو عبيدة ، حتى لان جانبهم وظهر رضاهم ، وانتهز عمر بن الخطاب هذه الفرصة فصاح :

« يا أبا بكر امدد يدك ابايعك ، فبايعه عمر ، ثم بايعه ابو عبيدة وهو يقول : « انك أفضل المهاجرين وثانى اثنين اذ هما فى الغار وخليفة رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الصلاة ، فمن ذا ينبغى أن يتقدمك او يتولى هذا الأمر عليك » .

وزير المــال

كان ابو بكر خبيرا بالرجال ، فوضع الرجل اللائق فى المحــل اللائق .. جعل خالدا اميرا للجيوش ، وسلم الى عمر بن الخطاب امور القضاء ، وولى ابا عبيدة بيت المال فكان ينظر فى انخراج والصدقة ويقوم بالانفاق على مصالح المسلمين ، ونفقات الجيوش حتى اذا ثبت دعائم بيت المال وقضت الضرورة برسالة جـديدة انتقل وزير المال الى ساحة القتال .

فاتح الشام

امر ابو بكر بالتعبئة العامة ضـد الروم وجمع لأجناده خير القادة فجعل على الجيش الأول يزيد بن ابى سفيان ، ووجهته شرق الأردن ، وعلى الثانى شرحبيل بن حسنة ووجهته البلقاء ، وعلى الثالث عمـرو بن العــاص ووجهته فلســطين ، وعلى الجيش الرابع ابا عبيدة ووجهته حمص .

وقال ابو بكر لقواده اذا اجتمعتم فقائدكم أبو عبيدة .

وتعتبر وصية الخليفــة الصـديق من اروع ما اسفرت عنه تعليمات القيادة وتوجيهات القادة العظام .. قال :

« اذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على اصحابك فى سيرك .. ولا تغضب على قومك وشاورهم فى الأمر ، واستعمل العدل ،

وباعد عنك الظلم والجور ، فانه لا يفلح قوم ظلموا ، ولا نصروا على عدوهم .

واذا لقيتم القوم فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير .

واذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ولا شيخا ولا امراة ولا طفلا ولا تعقروا بهيمة الا بهيمة المأكول ، ولا تغدروا اذا عاهدتم ، والا تنقضوا اذا صالحتم » .

وتحولت الجيوش العربية لفتح الشام ، كانت الشجاعة والايمان والتضحية تواجه العدد والمعدات ووفرة الاستعدادات .. وبدات الأرض تهتز تحت أقدام الروم ، وطالت الوقفة عند اليرموك ، ورأى الخليفة الصديق ان يبت فى الموقف فأمر بخالد بن الوليد فتحرك من العراق الى الشام أميرا للجيوش العربية ، وتم احراز النصر المبين ..

جندى فدائى

كان ابو عبيدة .. هو ، قائدا عاما ، أو قائدا ضمن التشكيل .. لايفتنه المنصب ، ولا تهزه المسميات ، كان رجلا يعمل بقلبه وفكره وايمانه وتضحياته ، فلا ينظر الى الدنيا ولا يعمل لها .. لم يكن قائدا محترفا ولا صاحب مأرب ، لم يكن من قادة أيام السلم ولا ابطال الحرب على الورق ، وانما كان جنديا بسيطا مؤمنا بهدفه ، راغبا فى نصرة دينه ووطنه ، ولهذا لم يختلف عليه الأمر حين كان قائدا لخالد ، وحين كان خالد قائدا له .. فلما تم فتح الشام نظم امورها وحمى حدودها ، واشاع فيها العدل والسلام .

وقد رغب الاعادى فى أن يدخل هو مدينتهم دون خالد ، فسلموا اليه لانه كان طيب القلب ، بسيطا ، حسن المعاملة .

ولما دخل عمر بيت ابى عبيدة لم يجد فيه الا سيفه ودرعه وكسيرات من الخبز ، فبكى عمر وقال : لقد غيرتنا الدنيا جميعا الا ابا عبيدة ..!

ثم بكى عمر مرة اخرى حسرة واسى على الجندى الكبير والمسلم العظيم حين انتهى عمره ، واسلم لله أمره ، وصعد الى جواره ، فقد اصيب بمرض الطاعون فى الشام ، وكان آخر كلماته :

« انى موصيكم بوصية ان قبلتموها لن تزالوا بخير .. اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا شهر رمضان وتصدقوا وحجوا واعتمروا وتواصوا ، وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم ولا تلهكم النساء فان امرؤ عمر الف حول ، ما كان له بد من أن يصير الى مصرعى هذا الذى ترون . الله كتب الموت على بنى آدم فهم ميتون ، واكيسهم اطوعهم له ، واعملهم ليوم معاده » ..

الجندى الدبلوماسى الأريب

عمرو بن العاص

في هذه المرحلة التاريخية التى تجتازها البلاد العربية اليوم ، يطيب للنفس أن تستعيد ذكريات الماضى المجيد .. وفى مقدمتها دخول مصر فى جامعة الوطن العربى عندما رفع عليها عمرو بن العاص راية الاسلام والعروبة ..

اراد الله بالبشرية الخير ، ولعباده النجاة من ظلمات الجهل والشرك فبعث محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول صدق ونبى هدى ورحمة للعالمين ، فآمن به من شرح الله صدره للاسلام ، وانكره وكفر به الجاهلون ..

وكانت قريش قد هالها امر هذا الدين الجديد الذى جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقضى على عقائدهم ، ويودى بآلهتهم ، ويحولهم عما توارثوه وشبوا عليه من عادات وعبادات وتقاليد ونظم .. ولهذا قابلوا الدعوة بالصد والكيد ، وأمروا بشعرائهم وخطبائهم ان يستخدموا مواهبهم فى الهجاء والاعتداء وفى المطارحة والمقاومة .. وكان فى مقدمة فرسان هذه الحلبة فتى من خيرة فتيان قريش وأثبتهم جنانا واشدهم دهاء : عمرو بن العاص .

ومضت قريش فى عداوتها الى آخر الشوط ، وتطور كيدها الى الايذاء والاعتداء ، والتآمر والاغتيال ، فأذن الله للمسلمين فى الهجرة ، وخرج أول رهط منهم ـ يتقدمه عثمان بن عفان ـ فارين بدينهم الى الحبشة حيث آواهم النجاشى وامنهم واكرم وفادتهم .

وكانت هجرة هؤلاء النفر من المسلمين بمثابة لطمة أصابت قريشا وآذت سادتها بأول انتصار لأصحاب الدعوة المحمدية واستقر الراى على ايفاد مبعوثين الى النجاشى لاقناعه بتسليم المهاجرين ، وكان طبيعيا ان يقع الاختيار فى هذه المهمة الدبلوماسية على ذلك الشاب الشاعر الذى لجم الدعوة باشعاره ثم جاء يجاهدها ببراعته ولباقته ..

داهية العرب

ذهب عمرو ومعه عبد الله بن ابى ربيعة الى الحبشة يحملان الى النجاشى وحاشيته وبطارقه الهدايا والعطايا ، وراح السفير

المدره يتقرب الى ملك الحبش ويستدر اهتمامه وتقديره ، ثم انهى اليه أمر هؤلاء المارقين من دينهم ، الهاربين من قومهم ، وناشده أن يستجيب لرؤساء العشائر وصفوة القوم فى تسليم هؤلاء الضالين .

ولكن النجاشى كان رجلا يحافظ على كلمته ، ولا يبت فى امر قبل أن يتحقق منه فأراد ان يقف على الحقيقة ويستجلى بواطن الامر ، وجمع الطرفين فى مجلس واحد ، فتكلم جعفر بن ابى طالب عن المهاجرين وعدد امور الاسلام وقرأ ما تيسر من سورة مريم فقال البطارقة : « هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح » وقال النجاشى : ان هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وختم النجاشى المؤتمر قائلا للسفيرين :

« انطلقا ، والله لا اسلمهم اليكما » .

وبحث عمرو فى كنانته عن سهم جديد .

وذهب من غده الى النجاشى يحاول الايقاع بينه وبين اللاجئين عنده ، ولكن طاش سهمه اذ تبين للنجاشى بعد سماع اقوال الفريقين ان هؤلاء المسلمين يعترفون بعيسى ويعبدون الله .

فى ميدان القتال

وانتقل الشاعر السفير الى ساحة جديدة ، وهو ضالع فى خصومه الاسلام ، متأثر بعصبيته ، ومتمثل بأبيه العاص بن وائل الذى كان من أشد اعداء الرسول ، ومقتفيا اثر اهله بنى سهم الذين كانوا أصحاب الحكومة فى قريش قبل الاسلام .. وكانت الساحة الجديدة التى انتقل اليها عمرو فى محاربة المسلمين هى ساحة الحرب عندما أذن الله لرسوله بالجهاد ونزل قوله تعالى :

« اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ».

وكان عمرو من صناديد قريش ، وقد اشترك فى عدة معارك ضد المسلمين فكان الخصم العنيد والعدو الماكر ، وقد جمع بين شدة الجندية وحنكة السياسة ، وحفل تاريخه بالأحداث والمبتكرات والمفاجآت التى تحدث بما كان عليه عمرو بن العاص من بعد النظر وحسن التقدير والتدبير ، وقد اتى بأعمال غير معهودة وأساليب لم يسبقه اليها احد ، وكانت له فى الحرب كفاية تضعه فى صف كبار القادة ليس فى وقته فحسب ، وانما فى جميع العصور .

فهو لم يعرف الحرب على انها قتال فحسب ، ولكن الحرب عنده ـ كجندى موهوب محنك ـ جهاد بأساليب متعددة وادوات « شتى » تتناول جميع الأشخاص والأشياء والوسائل . وهو جندى « ميكافللى » ـ الغاية عنده تبرر الوساطة ـ ولهذا فقد ادخل فى الحرب كثيرا من ضروب الحيل والخدع والمكائد .

المرأة فى الحرب

وعندما بدأت الحرب بين قريش والمسلمين كان عمرو مبعوث قريش لاستنفار العرب وتأليبهم ، ففكر فى امر جرىء وهو الاستعانة بالمرأة فى الحرب ، ورأى فى ذلك ما يزيد همم الرجال .

وما يدفع المحبة فى الصدور ، فتصبح المعركة معركة عن الحمى وعن المعتقدات وعن الأعراض .

ونجحت الفكرة ايما نجاح ، وخرج للقتال مع قريش ثلاثة آلاف رجل وخمس عشرة امرأة يصرخن وينحن ، ويشجعن الرجال ويحرضنهم على القتال ، وكن يقمن خلف الصفوف ويضربن الدفوف وينشدن :

نحن بنـات طـارق　　　نمشى عـلى النمارق

ان تقبلـوا نعـانق　　　أو تدبروا نفـارق

فـراق غـير وامق

اعمال الدوريات

وفى وقعة احد كان عمرو من اعلام المشركين فى المعركة وايضا خالد بن الوليد ، وقد حاربا ببسالة وانتهزا كل فرصة للنيل من المسلمين وكادت المعركة تنتهى فى صالحهم كذلك كانا معا فى وقعة الخندق يناوشان ويناوران ، ويلتمس كل منهما السبيل لعبـور الخندق مرة بعد مرة ويتناوبان أعمال الدوريات ، وقد أوشكت حيلة عمرو أن تنجح ذات مرة ، واستطاع بهذه العمليات التهديدية المزعجة أن يؤرق أجفان خصومه حتى عظم البلاء واشتد المكروه .

اسلام عمرو

كان هذا الشاب المقدام والقائد الموهوب يعمل فكره ويدرس شئون زمنه فى عمق وأناة .. فلم يكن يقدم على عمل قبـل بحث وتمحيص وفهم ، ولذلك فانه فكر طويلا فى الدين الجديد ، وقلب الأمر على وجوهه المختلفة ، فظهرت أمامه الحقائق وتوالت الآيات ، وشرح الله صدره للاسلام ومن حسن تدابير القـدر انه حين خرج من مكة يريد المـدينة وجـد فى طريقه خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة ــ وقد قصدا قصده .. فدخلوا ثلاثتهم على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فبايعه خالد اولا .. ثم عثمان .. واخيرا اقترب منه عمرو وأسر اليه بقوله .

« يا رسول الله انى ابايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى »

فقال ــ صلى الله عليه وسلم : « يا عمرو بايع ، فان الاسـلام يجب ما كان قبله ، والهجرة تجب ما كان قبلها » .

واصبح عمرو قائدا فى صفوف المسلمين ، فلمع نجمه ، وذاع صيته وواتته الفرصـــة العظمى لاظهار مواهبه الكامنة فى اعظم الميادين وأسمى الغايات واخلد الاعمال .

وقد قربه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وباركه ، وخفره وشجعه ودفع به الى حيث يجيد ويفيد ، فقد كان عمرو ـ كما قدمنا ـ يقرن الى مواهبه العسكرية فطانة الســـياسى الداهية ولباقة الاديب الاريب .

فلما كانت غزوة ذات السلاسل قلده النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللواء ، وجعله على ثلاثمائة من سراة المهاجرين والانصار وامره ان يستعين بمن فى طريقه من العرب ، وذلك أن عمرا كان ذا رحم فى تلك الانحاء .. فاراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان يتآلفهم به .

وادرعوا الليـــل

وقد سبق عمرو القادة العصريين بمئات السنين عندما فكر فى القيام بالعمليات الليلية امعانا فى التستر وتجنبا للاجهاد وتحضيرا للمفاجاة ففى هذه الغزوة عمل على تحويل اذهان العدو عن تحركاته فصار يكمن النهار ويسير الليل .

وعندما نزل بأرض جذام ـ وكان شـتاء ـ اراد اصحابه ان يصطلوا ، فمنعهم عمرو حتى لا ينكشف امرهم بسبب النار التى يراها الخصوم ليلا على مسافات بعيدة ، وبذلك طبق مبدا الوقاية

ولما علم بأن العدو اكثر عدة وعددا وسار فى تقـدير الموقف الى ترجيح كفة الخصوم ، لم يندفع فى القتال ، ولم يقامر بدخول معركة محفوفة بالاخطار فى ظروف دقيقة تستلزم الحيطة والحذر

لاهمية نتائجها .. فبعث فى طلب امداد يستعين به على الموقف حتى تكتمل له الأهبة ويتم الاستعداد .

قائد واحد افضل من قائدين

وقد قدر له النبى صلى الله عليه وسلم موقفه وبعث اليه ابا عبيدة عامر بن الجراح ومعه مائتان من المهاجرين والانصار وعقد له لواء وامره ان يكونا جميعا ولا يختلفا ، فلما لحق بعمرو واراد أبو عبيدة ان يؤم الناس ويتقدم عمرو ، قال له عمرو : « انما قدمت مددا ، وليس لك أن تؤمنى وانا الأمير » .. فقال أبو عبيدة « انظرن يا عمرو .. تعلمن ان آخر ماعهد الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ان قال : « اذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا » ، وانك والله ان عصيتنى لاطيعنك .

وهكذا حقق عمرو مبدأ توحيد القيادة ، وحافظ على كيان القائد المسئول الذى أخذ المسئولية على عاتقه واضطلع بأدائها ، واثبت قبل مئات السنين نظرية نابليون بونابرت : ان قائدا رديئا خير من قائدين عظيمين .

وكان هذا من أهم أسباب نجاح غزوة « ذات السلاسل » ، فقد جعل القيادة كلها فى يده ، وسار - وقد صار فى خمسمائة - حتى دخل بلاد « بلى » ودوخها .. وكان اسمه وحده بشيرا بالفوز ، فقد ذكرت المراجع ان عمرا كلما وصل الى محلة بلغه انه كان بها جمع فلما سمعوا به تفرقوا .. وبهذا شتت جموع اهل الشام واعاد هيبة المسلمين .

هزيمة المرتدين

وكان عمرو أحد القادة العظماء الذين عهد اليهم القضاء على المرتدين فبدأ بقتال « قضاعة » - فى شمال شبه الجزيرة -

وقضى على الردة فيها ، ثم وصلت رسالة من الخليفة الصديق يخبره ان يبقى حيث هو او ان يسير الى الشام فكان رد عمرو :

« انى سهم من سهام الاسلام وانت بعد الله الرامى بها والجامع لها ، فانظر اشدها واخشاها وافضلها فارم بها شيئا ان جاءك من ناحية من النواحى .. » وعندئذ امره ابو بكر على فلسطين .. ثم كان من قادة المعركة الكبرى ضد الروم ، قائدا للميمنة فى معركة اليرموك الفاصلة التى تم بها فتح الشام .

طلب الامارة

لقد قال المؤرخون فى عمرو أن دهاءه السياسى كان يفوق براعته الحربية ، اذ كان حذرا غير مقدام وانه كان يميل الى الرياسة ويسعى للامارة ، فلما قال الخليفة ابو بكر : « أن جمعتكم حرب فأميركم ابو عبيدة بن الجراح » لم ييأس عمرو بل ذهب الى عمر بن الخطاب يناشده أن يكلم أبا بكر ليجعله أميرا على المسلمين بالشام .. فكان جواب عمر : « لا أكذبك ما كنت لاكلمه فى ذلك ابدا ، وابو عبيدة افضل منزلة عندنا منك ويحك يا عمرو ؟ .. انك لتحب الامارة والله ماتطلب بهذه الرياسة الا شرف الدنيا .. فاتق الله يا عمرو ، ولا تطلب بشىء من سعيك الا وجه الله . فأخرج الى هذا الجيش ، فان لم تكن اميرا فانك ستكون فيما بعد » .

وسرعان ما اقبلت الفرصة حين تم فتح فلسطين والشام واستتب الامر فى عهد الخليفة عمر ، فجاء عمرو بن العاص يستأذنه فى السير الى مصر ، ووصفها بانها اكثر الأرض اموالا وانه اذا فتحها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وتامينا لسلطان العرب فى الجنوب بينما بقاؤها فى يد الروم يعرض الموقف فى الشام للخطر .. وما زال به حتى اذن له وعقد له على اربعة آلاف رجل .

السير الى مصر

كان لعمرو سابق معرفة بمصر عند قدومه اليها للتجارة فى أيام الجاهلية ، وقد اعجب بخصب ارضها ، ووفرة خيراتها فطمع فى ان يعقد له اللواء ويكون الامير ، ولم يزل يهون الأمر على الخليفة ويغريه ، ويعدد له المزايا والحسنات بينما كان الخليفة يزن الامور بميزان أكثر دقة وينظر فى متعدد الميادين ، ويشغله قبل كل شيء تثبيت اقدام المسلمين فى البلاد التى فتحوها والتى كان جندهم يقيم فيها بين الجزيرة والشام وفارس .. بل انه ظل مترددا رغم موافقته ، وبعث الى ابن العاص بجواب مشهور يأمره بالعودة اذا وصله الجواب قبل دخول مصر .. وقد حذر الفطن عمرو ما يمكن ان يكون فى هذه الرسالة التى وصلته فى رفح ، فلم يطلع عليها حتى دخل أرض مصر ، واعلنها على جنوده .

وبلغ العرب العريش سنة ١٨ هـ فلم تقاوم ، ثم بدأت منها المرحلة الحاسمة على ذات الطريق التاريخى الذى سلكه سيدنا ابراهيم عندما سار الى بلاد العرب بابنه اسماعيل وسيدنا يوسف عندما سار من الشام الى مصر فى عهد فرعون ، وسلكه قمبيز ملك الفرس فى غزوته لمصر ، والاسكندر المقدونى فى طريقه الى الهند .

فلما بلغ العرب الفرما ـ مفتاح مصر فى ذلك الحين ـ حاصرها عمرو اكثر من شهر لما كانت عليه من قوة ومنعة ، فلما تم له فتحها فى أول المحرم سنة ١٩ هـ (منتصف يناير ٦٤٠ م) بارحها الى القنطرة ، فالصالحية حتى دخل بلبيس بعد قتال يسير .. وهناك وجد فى بلبيس ابنة المقوقس حاكم مصر من قبل الروم ، فراى عمرو بثاقب فكره وحسن سياسته ، أن يبعث بها الى ابيها معززة مكرمة ، فكان لهذا التصرف اطيب الاثر لدى القبط فاعجبوا بالمسلمين واحسنوا الظن بهم ، ورحبوا بمقدمهم ومدوا لهم يد المساعدة والتايید .

رجل بالف رجل

تباطأ عمرو ... واستحثه عمر .

وكانت المقاومة قد اخذت في الشدة ، وعمرو على الأبواب يعالجها في روية وحذر وحسن تقدير للموقف فبعث الى الخليفة عمرو يطلب المدد فأرسل اليه أربعة آلاف على رأسهم أربعة من كبار الصحابة ، الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد والمقداد بن الأسود ، وجاء في كتاب الفاروق :

« لقد امددتك بأربعة آلاف ، وعلى رأس كل منهم رجل بألف رجل » !

وكان جيش الروم يبلغ عشرين الفا بقيادة القائد تيودون ودارت المعركة في مكان « القاهرة » والتفوق العددى في جانب الروم ، والايمان وحسن التدبير في جانب العرب ، وقد كان العرب ينتصرون بفضل القيادة البارعة .

وقد قاد عمرو قواته مستخدما الخدعة ، فجعل قوة في جبل العباسية وقوة في قرية أم دنين ، دون ان يفطن العدو الى هذا الاجراء الخفى الذى هو أقرب الاعمال الى طريقة « الكمائن » المعروفة في الحرب الحديثة .. فلما التحم الروم بالقوة الرئيسية للعرب ظهرت القوتان الكامنتان ، فأصبح الروم بين جيوش العرب الثلاثة ، وهزمت الروم .

ثم كانت المعركة الفاصلة حول حصن بابليون الذى استمر يقاوم سبعة اشهر ثم سقط بعمل من اعمال الخداع ، وبعث المقوقس في مباحثة العرب فخيره عمرو بين الاسلام او الجزية او القتال .

وعاد رسول المقوقس يحمل الى سيده شروط الصلح ، ويصفه العرب وصفا رائعا ويقول : « رأينا قوما الموت احب اليهم من الحياة

والتواضع أحب لهم من الرفعة ، ليس لاحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم » .

وقد تأثر الحاكم بهذا الحديث وادرك كنه العرب وقدر ماكانوا عليه من نظام وآداب فصار وقومه عونا للمسلمين .

وتم لعمرو فتح مصر واختار الفسطاط عاصمة لها وبعث الى الخليفة بالبشرى ووصف له مصر فى رسالة شائقة مشهورة .

« مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل اعفر ، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان ، جرى الشمس والقمر ، له أوان تظهر به عيون الارض وينابيعها ، حتى اذا عج عجاجه ، وتعاظمت امواجه ، لم يكن وصول بعض القرى الى بعض الا فى خفاف القوارب وصغار المراكب فاذا تكامل فى زيادته ، نكص على عقبيه كأول مابدا من شدته ، وظما فى حدته فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون اوديته وروابيه ، يبذرون الحب ، ويرجون الثمار من الرب ، حتى اذا أشرق وأشرف سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه فبينما هى يا امير المؤمنين ورقة بيضاء ، اذا هى عنبرة سوداء ، واذا هى زبرجدة خضراء ، فتعالى الله الفعال لما يشاء » .

والى مصر

عندما انتهى امر المسلمين ـ بعد مقتل عثمان ـ الى امير المؤمنين على بن أبى طالب نازعه وعارضه معاوية بن ابى سفيان الذى كانت له فى الشام قوة وعزوة ، واستعد للقتال واشتد ساعده بعمرو بن العاص ، يقود جنده ويبث احابيله ويستخدم حيله حتى اشاع الفرقة فى جيش على وغرر بانصاره ، وسحبه الى كمين « التحكيم » .. ثم اخذت كفة معاوية فى الرجحان

وصارت الولايات تنضم اليه حتى اذا ثبت الامر له بعث بعمرو الى مصر وجعلها له ولاية مطلقة .

وفى مصر تجلت مواهب عمرو فى الحرب والسياسة ، وكان عهده خيرا عظيما عليها ، فنظم القضاء ووضع التقسيم الادارى والضرائب واشاع الحرية والعدالة .

ودخل عمرو ساحة التاريخ الذى وضعه فى صف عباقرة الحرب والسياسة . ولا غرو فقد كان عمرو الجندى السياسى الاديب الذى وصف بحق بانه « داهية العرب » .

القائد الأسد

سعد بن أبي وقاص



« انى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل الله »

« انه الأسد عاديا »

عندما استشار عمر بن الخطاب اهل الراى فيمن يوليه حرب الفرس ، اشاروا عليه بسعد بن ابى وقاص ، وقالوا عنه : « انه الأسد عاديا » ، فسلم اليه قيادة الجيوش الاسلامية فى تلك الحرب الفاصلة .

لا ريب ان الاجماع الذى تم لسعد كان له من المقدمات ما يبرره ، ذلك بما عرف عن هذا الجندى الكبير والمسلم العظيم من صفات وميزات قبل ان يتولى هذه القيادة الضخمة ، كما ثبت فيما بعد ان هذا الاجماع كان فى موضعه ، فقد كان سعد عند حسن الظن بكفايته ومقدرته حين مضى لمهاجمة دولة الأكاسرة ، وحين راح يدفع الجيوش العربية البدائية من بلد الى بلد وينتصر بها فى معركة بعد معركة ، ويرفع راية الاسلام ولواء العروبة ويكتب سطورا خالدة فى كتاب البطولة العربية .

لقد كان سعد من شباب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين استجابوا لدعوته وتأثروا برسالته واغترفوا من حسناته وبركاته ، فصفت نفوسهم وصح اسلامهم واشتدت فى الجهاد عزيمتهم وانصقلت فى غمار الأحداث شخصياتهم ، فكانوا أبطالا فى ساحات الوغى وساعات الشدة ، يقبلون على الموت فيفر منهم الموت ، وتنتصر قلتهم على أضعاف أضعاف عدوهم .. وبهذا هزموا المشركين وقضوا على المرتدين وازالوا دولة الروم وختموا على سلطان الفرس وصاروا من أصحاب الفواصل فى التاريخ .

ان فى حياة سعد بن ابى وقاص صفحات مجد وفخار تسجل كل منها مرحلة من حياته الحافلة ، وتشهد بعظمة نفسه وقوة ايمانه وشدة بسالته ووفرة كفاءته .

وانت حين تقلب هذه الصفحات تجده الإسد عاديا ، سواء فى

الجاهلية حين كان فتى مرهوب الجانب موفور الهمة نافرا من طباع الجاهلية وعاداتها ، او فى مجالات التجارة حين ظهرت براعته فاثرى وغنم ، او فى هجرته حين وجد من حسن الراى ان يفر بدينه ، او فى ميدان القتال حين اعطى اللواء فاثبت انه من اعظم القادة فى التاريخ كله .. واخيرا تراه يستأثر بالتقدير والتوقير حين تسعى اليه الخلافة وهو يأباها ، وحين يجد التنافس على الحكم فيعتزل الفتنة وينأى عن مواطن الاغراء والشبهة .. حتى ان يحين حينه ويلقى ربه راضيا مرضيا .

نشأ سعد بن ابى وقاص فى الجاهلية حر الفكر متألق الذكاء موفور الكفاءة ؛ وكان يضيق بطباع أهل الجاهلية وينفر من عبادة الأوثان ويتحسس طريق الحق وسبيل النجاة ، فما أن طرق سمعه ووعيه داعى الاسلام حتى استبان بقلبه الرشاد وأحس من اعماقه جلال الدعوة وصدقها ، فبادر اليها مبادرة الظمآن للماء ، وقد روى عنه أنه قال :

« رايت فى المنام قبل ان اسلم بثلاث ليال كأنى فى ظلمة لا ابصر شيئا .. اذ اضاء لى قمر فاتبعته فكأنى انظر الى من سبقنى الى ذلك القمر ، فأنظر الى زيد بن حارثة والى على بن ابى طالب والى ابى بكر ، وكأنى أسألهم متى انتهيتم الى ها هنا قالوا وبلغنى ان رسول الله يدعو الى الاسلام مستخفيا ، فلقيته فى شعب اجياد وقد صلى العصر فأسلمت » .

وهكذا كان سعد فى مقدمة من اسلموا لله ، وكان من العشرة الابرار الاطهار الذين وعدوا الجنة .

وقد مر فى فاتحة اسلامه بتجربة دقيقة اختبر فيها ايمانه وامتحنت نفسه ، ذلك انه حين علمت امه باسلامه اضربت عن الطعام حتى يرجع الى ما كان عليه آباؤه .. وفى ذلك قال سعد :

« كنت رجلا برا بامى ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الدين الذى احدثت . . لتدعن دينك او لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيرنى ، فقال : لا تفعلى يا امه فانى لا ادع دينى ، فمكثت يوما وليلة لا تأكل فأصبحت وقد جهدت ، فقلت : « والله لو كانت لك الف نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى » .

فلما رات ذلك اكلت فانزل الله الآية الكريمة :

« وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » .

أول من رمى بسهم

كانت صناعة سعد رمى النبل ، وكان ماهرا فى الرمى ، لا يخطىء ولا يخيب وقد رمى يوم أحد ألف سهم ، وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : ارم فداك أبى وأمى ، ارم أيها الغلام الحزور « اى الصائب » .

وتناول سعد سهما لا نصل له ، فقال له النبى — صلى الله عليه وسلم : ارم . . فوقع السهم فى نحو « حيان » أحد الفرسان الأشداء فى صفوف المشركين ، فدعا له النبى — صلى الله عليه وسلم — أن يسدد الله رميه ويجيب دعوته :

وكان سعد يقول :

« انى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل الله . والله انا كنا لنغزو مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما لنا طعام الا التمر وورق الحلبة » .

وفى صحبة النبى — صلى الله عليه وسلم — مضى سعد ينمى مواهبه ، ويزيد تجاربه ويصقل شخصيته ويتم استعداده حتى اتيحت له الفرصة ليضع قدمه فى ساحة التاريخ ، ويقرن اسمه

بأعظم المعارك الفاصلة دون أن يخرجه ذلك المجد العظيم عن صفاته الأصيلة وطباعه الملازمة فكان كثير التقوى ، شديد الورع ، كبير الاخلاص ، عميق الايمان ، لا تخدعه الدنيا ولا تصرفه عن طريقه أعظم المغريات .. ولو كانت امارة المؤمنين ! فقد كان أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد اليهم عمر ، وكانت له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأباها ، وقال له ابن اخيه « ان مائة الف سيف تريدك على الخلافة » ، فرفض .

سعد القائد

فى البادية نشأ سعد نشأة عصبية قبلية ، وكان شابا قوى الاهاب كبير العقل ، مولعا بأدوات القتال ، محبا للتنقل والأسفار فالطبيعة الجندية كانت بارزة فى حياته ، وحاسة القيادة كانت فى أعماقه ، فلما توج ذلك بالايمان وشرح الله صدره للاسلام فقويت روح الجهاد واتقدت نار الحمية والبسالة ، فلما وطئت قدمه ساحة الحرب أبلى البلاء الحسن وأبدى الشجاعة النادرة والكفاءة الباهرة التى أهلته لقيادة الجنود ووضع الخطط واخذت شخصيته العسكرية تتكشف وتعظم ، وأخذت كفاءته فى القيادة تنمو وتزدهر ، حتى صار غازيا لأعظم دول زمانه وقاهرا لأكبر جيوش عصره .

ومن عجب أن هذا القائد البدائى لم يتعلم الحرب فى مدرسة ولم يضع الخطط على الورق ، قد برع فى قيادته الى درجة يستوى عندها مع كبار العسكريين فى جميع الأزمان ، وقد أبدى من المرونة والثبات والحنكة ما يجعله ندا لأعظم القادة فى التاريخ كله ، وقد انفرد بتنفيذ مبادىء الحرب قبل أن يعرفها العالم الحديث .. فتراه فى معاركه يبدأ بدراسة موقف العدو ، ويجمع المعلومات من مصادر شتى ، ثم يبدأ بالسيطرة على الموقف لتكون لقواته ميزة « المبادأة » ويمعن التستر ليحافظ على مبدأ المفاجأة ويبعث العيون تكشف تحركات العدو حتى يضمن « الوقاية » ، وحين يبدأ الهجوم

تراه يضرب بشدة ليكون فى الساعة الحاسمة اكثر قوة واعظم جندا محققا مبدأ « الحشد » .. وغير ذلك مما سنذكره مفصلا فى المعارك التى خاضها وقادها سعد بن أبى وقاص .

مبادىء الحرب

انظر اليه فى أول اختبار .

عقد له النبى لواء الى الحراز ، بناحية المدنة ، فخرج على راس عشرين رجلا من المهاجرين ـ مشاة ـ فكانوا يكمنون النهار ويسيرون الليل .

فاذا سألت عن سر هذا « التكتيك » قيل لك : ان هذا مبدأ من مبادىء الحرب يطلق عليه « الوقاية » يعمد اليه القائد الفطن حتى لا تظهر تحركاته للعدو فيظل أمره خافيا مستورا ، حتى يمكن له مفاجأة خصمه والقضاء عليه .. وهذا هو ما فعله المارشال ويفل فى تقدمه على المعسكرات الايطالية فى الصحراء الغربية عام ١٩٤١ فى الحرب العالمية الثانية ، فحقق له شهرة واسعة !

وكان سعد والزبير وعلى بن ابى طالب من الخبراء فى أعمال « المخابرات » ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يبعث بهم لاستقصاء أخبار خصومه فيعودون اليه بأدق المعلومات ، وهذا هو ما تفعله الجيوش الحديثة .. حتى ليقال : ان الجيوش بمخابراتها .

وعندما انهزم المشركون فى وقعة أحد بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سعدا خلفهم ، لكى يستطلع اخبارهم ويعرف اتجاههم .. فان ركبوا الابل وجنبوا الخيل فهو الظعن ، وان ركبوا الخيل وجنبوا الابل فهى الغارة .. فخرج سعد يتبعهم فى حذر وخفاء حتى بلغ نقطة « المراقبة » فاذا هم ركبوا الابل وجنبوا

الخيل ، فعاد فاخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعدولهم عن معاودة الهجوم !

وكان سعد يعلم ان اهم هدف فى الحرب هو راس الجيوش ، اى قائده ، فلما كانت احدى الليالى الحافلة بالأحداث مضى سعد الى مكان القيادة ليحمى النبى القائد .. قالت عائشة : سهر رسول الله ليلة مقدمه المدينة فقال : ليت رجلا صالحا من اصحابى يحرسنى الليلة .. فبينما نحن كذلك اذ سمعنا خشخشة سلاح فقال : من هذا ..؟ قالوا سعد بن أبى وقاص ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ما جاء بك ؟ فقال سعد ، وقع فى نفسى خوف على رسول الله أحرسه .. فدعا له الرسول ـ صلى الله عليه وسلم .

العمليات الأولى

بدأ سعد عملياته فى دائرة صغيرة ، ولكنها سرعان ما اتسعت فانتقل من قيادة عشرين رجلا الى مائتين الى عدة مئات فى المعارك التى خاضها ضد المشركين ، وقد امتاز خلالها بثلاث ميزات :

١ ـ دقة التصويب .. حتى أنه نثر كنانته فى احدى المواقع ، وكان فيها عشرون سهما مامنها سهم الا وجرح انسانا أو دابة .. وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له : ارم ، فداك ابى وأمى .

٢ ـ شدة الثبات .. وقد ثبت مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى معركة احد بين خمسة عشر رجلا ، منهم سبعة من المهاجرين .. أبو بكر ـ عمر ـ عبد الرحمن بن عوف ـ على ـ طلحة ـ أبو عبيدة ـ الزبير ـ وسبعة من الأنصار .

٣ ـ وفرة الفطانة .. ولهذا كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلفه

هو وعلى والزبير باعمــال المخابرات وتقصى خطط المشركين ونواياهم .

الى ارض المعركة

انتصر الاسلام على الشرك ، وقضى على الردة ، واستتب له الامر فى شبه الجزيرة .. وبلغت جيوش المسلمين مشارف العراق واصبحت على حدود الوطن العربى والشام وخليج فارس ، حيث كانت أعظم دول ذلك العهد تزهو بتقدمها ، وتتمنع فى حصونها ، وتسيطر بجيوشها المنظمة المدربة وأسلحتها المبتكرة النافذة .

وبدات مرحلة نشر الدعوة الاسلامية ، واخذ خليفة المسلمين ابو بكر يعد العدة للفتح فبعث الى العراق خالد بن الوليد وعياض ابن غنم والمثنى بن حارثة والقعقاع بن عمرو وتم لخالد بن الوليد اخضاع الحيرة وقضى على دولة المناذرة التى كانت تحكم العراق من قبل الاكاسرة ، وانصرف خالد الى الشام مستخلفا المثنى على العراق وحدث أول صدام كبير بين العرب والفرس ، فانهزم الفرس وكان ذلك نذيرا بانحلال دولتهم والقضاء على قوتهم الغاشمة .

وعندما ولى أمر المسلمين الخليفة عمر وفد عليه المثنى بن حارثة يستأذنه فى حرب الفرس ، وخاصة وانهم فى حالة اضطراب بعد وفاة ملكهم شهريراز وتنازع الأمراء والقواد على الحكم ، فدعا عمر الى الجهاد ، وجعل أبا عبيدة بن مسعود على رأس القوة السائرة الى العراق ، وبدات المناورات بين العرب والفرس ، واخذ كل من الفريقين يستعد للمعركة الفاصلة .

وراى عمر ان الساعة الحاسمة اقبلت ، فأخذ يستنفر الهمم ويجمع المجاهدين فانسابت الامدادات واقبلت القبائل بدفعها روح الجهاد ونفحة الاسلام وصوت الحق .

سالت عليه شعاب الحى حين دعا
انصــــــاره بوجوه كالدنانير

وعندما استشار الخليفة كبار المسلمين فيمن يعهد اليه بالقيادة أشاروا عليه بأن يعهد بها الى ســـعد بن أبى وقاص ، وقالوا انه الأسد عاديا . . فأمره على حرب العراق وناط به غزو فارس ، واسر اليه بوصيته التالية :

« انى وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى فانك تقدم على أمر شديد كربه لا يخلص منه الا الحق . فعود نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتـادا ، فعتاد الخير الصبر » .

« يا سعد : عليك بالثبات عند الشدائد ، والتجلد فى المكاره فاصبر وصابر ، والله مع الصابرين » .

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل فيهم السراة وزعماء العرب وشيعهم الخليفة عمـر الى موقع « الأعوص » واوصـاهم وقوى عزائمهم فلما بلغوا موقع « زرود » انضم اليه أربعـة آلاف ، ثم وافاهم الأشعث بن قيس فى ألف وسبعمائة ، وانضمت اليهم قوات المثنى بن حارثة فصار تحت لواء سعد ثلاثون الفا ، كلهم متعطش للجهاد متحمس للنصر .

وجاءه كتاب من أمير المؤمنين يقول فيه :

« أما بعد ، فسر من « شراف » نحو فارس بمن معـك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله ، واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد ، وعلى بلد منيع وان كان سهلا . . واذا لقيتم القوم أو واحدا منهم فابدأوهم بالشر والضرب واياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم ،

فانهم خدعة مكرة امرهم غير امركم الا ان تجادوهم .. واذا انتهيت الى القادسية ، والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهى اجمع تلك الابواب لمادتهم ، ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغيب خصيب دون قناطر وانهار ممتنعة ، فتكون مسالحك على انقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات المدر ، ثم الزم مكانك فلا تبرحه فاذا احسوك انقصتهم رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فان انتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة رجوت ان تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم ابدا ، الا ان يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكون الاخرى كان الحجر فى ادباركم فانصرفتم من أدنى صورة من ارضهم الى أدنى حجر من ارضكم ثم كنتم عليها اجرأ وبها أعلم وكانوا عنها اجبن وبها اجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة .

وترجمة ذلك الكلام فى « الأوامر » الحديثة هو :

« لا تتوغل فى ارض العدو واتخذ خطة الدفاع الهجومى فى منطقة الحدود ، العدو سيلقى صعوبة ومشقة فى الوصول الى مواقعك اذا انتصرت تكون قضيت على قوتهم الأساسية ويصعب بعدها أن يعدوا قوة مثلها ، واذا انهزمت يكون فى استطاعتك الانسحاب بسهولة على ارضك التى تعرفها جيداً ويجهلونها » .

وجاءته ايضا وصية لها قيمتها من جندى باسل عرك هذا الميدان بالذات وكانت له فيه تجارب وخبرات وهو المثنى بن حارثة الذى فاضت روحه من جروحه ، وكانت وصية المثنى لسعد أن لا يتوغل فى بلاد العدو بل يصمم على قتالهم عند الحدود .

وكتب سعد الى عمر يصف القادسية فقال :

القادسية بين الخندق والعتيق ، وان ما عن يسار القادسية بحر اخضر فى جوف لاح الى الحيرة بين طربقين ، فاما احدهما فعلى الظهر واما الآخر فعلى شاطىء نهر يدعى الحضوض ، يطلع بمن

سلكه على ما بين الخورنق والحيرة ، وأن ما عن يمين القادسية الى الولجة فيض من فيوض مياههم .

وهكذا كانت الاتصالات مستمرة بين الخليفة وقائد جنده يتبادلان خلالها المعلومات ويتفقان بموجبها على الرأى والخطة ، وقد اقام سعد بالقادسية شهرا دون أن يتحرك اليه العدو فلم يضيع الوقت هباء بل كان نشيطا فى اعمال المخابرات للحصول على المعلومات عن الأرض والماء والكلأ وتحركات العدو .. الخ .

وبدأ سعد يضع خطته ، فقرر أن يبدأ بالسياسة قبل القتال ـ وكان هذا من رأى عمر تجنبا لاراقة الدماء اذا ما استمع الفرس للانذار واستجابوا للحق ـ فالهدف الحقيقى لحملة العرب فى فارس لم تكن الغزو والغلبة وانما كانت الدعوة الى الاسلام ، والا فالجزية .. واخيرا .. الحرب !

وبعث سعد وفدا الى الملك يزدجرد منهم النعمان بن مقرب والأشعث بن قيس والمغيرة بن شعبة وعمرو بن معد يكرب ، فقابلهم الملك بازدراء واحتقار واعتبر أن غزو العرب لفارس نوع من المقامرة والجراة فأجابه النعمان برسالة الحق ودعاه وقومه الى الاسلام فاذا أبى فالجزاء (أى الجزية) والا فالمناجزة (أى الحرب) .

ثم قال المغيرة : اختر ان شئت الجزية عن يد (أى عن ذلة) وانت صاغر ، وان شئت فالسيف .. او تسلم فتنجى نفسك .

فرد يزدجرد مغضبا : اتستقبلنى بمثل هذا ! لولا ان الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شىء عندى لكم ! ارجعوا الى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل اليكم (رستم) حتى يدفنه ويدفنكم فى خندق القادسية وينكل به وبكم من بعد ، ثم أورده بلادكم حتى اشغلكم فى انفسكم بأشد مما نالكم من سابور .

ثم أمر بتراب فحمله احدهم ـ وقد فاز بهذا الشرف عاصم ابن عمرو ـ فلما عادوا الى سعد ورأى ما يحمله عاصم من تراب فارس قال: ابشروا فقد اعطانا الله اقاليد ملكهم .

وقال يزدجرد لخاصته : لقد وعدت القوم أمرا ليدركته أو ليموتن عليه .. اما رستم فقد تطير مما حدث !

وقال احد رجاله : ذهب القوم بأرضكم غير ذى شك .

منطق العرب

ومكث الفرس اربعة أشهر لا يتقدمون للقتال ، كما رأى عمر أن يلزم المسلمون مكانهم لا ينخدعوا من هذا الصمت ولا يكشفون عن الخطة التى تقضى بالبقاء فى القادسية حتى يسير اليهم الفرس ولا يضجرون بمكانهم فينصرفون .. ودفع سعد بمقدمته أمامه وبدأ نشاط المخابرات وغارات الحدود واختبار الجبهة وبدأ الفرس يتحركون ووصلت خيلهم الى نهر العتيق وصالوا قبالة قوات المسلمين ، وأرسل رستم الى زهرة أن يوافيه ليتحادثا فقال له زهرة : « انا لم نأتكم لطلب الدنيا وانما طلبتم ، وهمتنا الأخرة ، ونحن ندعوكم الى شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله تعالى وأن يكون الناس اخوة » .

ثم ارسل سعد رمينا بن عامر فدخل على رستم وهو فى سرية من ذهب وزينة ومظاهر فكان الزهد والبساطة فى جانب والفخامة والمظاهر فى جانب آخر .. وقال له : اختر الاسلام وندعك وارضك او الجزية فتقبل ونكف عنك ؟!

وقد عاد رستم فطلب المندوب العربى لمباحثات جديدة فارسل سعد اليهم حذيفة بن محصن ، فاقبل على فرسه فى ثياب بسيطة وهيئة متواضعة وليس معه سوى رمحه فقيل له : انزل ، قال ذلك لو كنت جئتكم فى حاجة لى ، فقولوا للملكم : أله حاجة .. ام لى ؟

فان قال : لى ، فقد كذب ورجعت وتركتكم .

فقال رستم دعوه . ثم سأله ما جاء بكم .

قال : ان الله عز وجل من علينا بدينه وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكرين ثم امرنا بدعاء الناس الى واحدة من ثلاث . فأيها أجابوا اليها قبلناها : الاسلام وننصرف عنكم ، أو الجزية ونمنعكم ان احتجتم الى ذلك او المنابذة .

فلما كان من الغد أرسل رستم الى العرب : ابعثوا الينا رجلا فبعثوا اليهم المغيرة بن شعبة فأقبل حتى جلس على السرير . وهم يتظاهرون باحتقاره وتهوين شأنه .. فقال :

« اليوم علمت أن امركم مضمحل وانكم مغلوبون ، وان ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » .

وقدم رستم عرضه : «آمر لأميركم بكسوة وبغل والف درهم وآمر لكل رجل منكم بوقر (حمل) وتمر وبثوبين ، وتنصرفون عنا ، فانى لست أشتهى أن أقتلكم ولا آسركم » .

وكان رد المغيرة : الاسلام او الجزية وانت صاغر ، والا فالسيف .

وفى اليوم التالى بعث سعد انذاره الأخير على يد ثلاثة من ذوى الراى ولكن لم تصلح المفاوضة وتهيأ الفريقان للحرب ، قال رستم اتعبرون الينا ام نعبر اليكم ! فقالوا : بل اعبروا الينا .

وقف العرب فى جانب يشد ازرهم ايمانهم بالرسالة وثقتهم بالنصر أو الشهادة وفى الجانب الآخر اقبل الفرس بخيلهم وفيلهم وعددهم وعدتهم واستعد كل فريق للمعركة .

وكان سعد مصابا بقروح لا يستطيع معها الركوب أو الجلوس فأصدر « الأمر اليومى » لجيشه وهو منبطح ، قال :

انى استخلفت عليكم خالد بن عرنطة ، وليس يمنعنى أن أكون مكانه الا وجعى الذى يعودنى « عرق النساء » وما بى من الحبوب « الدمامل » فانى مكب على وجهى وشخصى لكم باد فاسمعوا له وأطيعوا ، انما يأمركم بأمرى ويعمل برأيى .

وكان سعد معنيا بالتعبئة الروحية عليما بأهمية القوة المعنوية فجمع الشعراء والخطباء وذوى النجدة والسيادة لكى ينطلقوا بين المجاهدين يحثونهم على الاستبسال ويشجعونهم على المكاره حتى دمغوا فى نفوسهم الحمية وحببوا اليهم الموت فى سبيل الله .

ووضع سعد توقيتات العمليات ، وكان التوقيت بالتكبير .

كبر التكبيرة الأولى فأخذت كل جماعة مكانها ، ثم ثنى فاستعد كل فرد ، وجاءت « ساعة الصفر » فبدأ الزحف العام .

وبدأت الجولة الاولى بمفاجأة كان الفرس قد أعدوها لقهر معنويات العرب ، فقد اخذت الفيلة تؤثر فى الموقف وارتدت أمامها صفوف العرب ، وكادت « بجيلة » أن تضيع وفرت خيلها نفارا فدفع سعد لنجدتها بنى اسد ، فاعملوا بنبلهم فى الركبان واستدبروا الفيلة فقطعوا وضنها ، وهنا تغير الموقف وصرخت الفيلة والقت حملها وعدت مذعورة واستمر القتال حتى غروب الشمس دون

أن يحدث تغيير يذكر فى موقف القوات وان كانت خسائر بديلة وأسد كثيرة ، ولكنها وقت العرب وحالت دون افـــــلات زمام المعركة .

ودارت رحى المعركة ، وخاصة بعد انتفاء عنصر المفاجأة ــ وهو الفيلة ــ حتى قيل ان الفرس وجدوا من الابل يوم أغواث اعظم مما لقى المسلمون من الفيلة يوم ارماث .

وكانت نتيجة المعركة تتجه لصالح المسلمين فبلغ عدد القتلى من المسلمين الفان بينهما كان قتلى المشركين عشرة آلاف .

وكان سعد معنيا بالشئون الادارية فجعل النساء يقمن بدفن الموتى واسعاف الجرحى ونقل السلاح والماء والغذاء .

ولم يضع الليل سدى .

كان سعد يأمر فتستعد قواته على نحو ما تستعد القوات الحديثة للعمليات الليلية فاتخذت كل جماعة أهبتها وكل جندى استعداده لبدء هجوم الفجر .

ثم كان اليوم الثانى « يوم اغواث » الذى اقبلت فيه الامدادات من الشام وعلى مقدمتها القعقاع بن عمرو ومنهم خمسة آلاف من ربيعة ومضر وألف من اليمن والجميع بقيادة هاشم بن عتبة .

وكان الفرس قد أعدوا للساعة الحاسمة عدتها فاعادوا تنظيمهم وجهزوا عددا من الفيلة فى حماية المشاة .

وبدأ القتال فى اليوم الثالث « يوم عماس » ــ المعركة الحاسمة ــ ونجح هجوم الفيلة ، فقام القعقاع وهاشم بعملية فدائية واصابا الفيل الاول فى عينه ودخل بعض الفدائيين فصنعوا مثلهم فنفرت الفيلة وفرت مذعورة واحدث هرجا ورعبا .. وبهذا فتح العرب

طريقا فى صفوف الفرس واشتدت رحى المعركة وصارت الدائرة لمن صبر .

وعلاج مشكلة الفيلة فى هذه الموقعة هو من قبيل معالجة الاسلحة المفاجئة فى الحروب الحديثة ، فالدبابات ثم الغازات السامة كادت أن تضع نهاية للقتال فى الحرب العالمية الاولى لولا نهوض الطرف الآخر الى معالجتها باسلحة مضادة او اساليب واقية فضاع عنصر المفاجأة وتحول اتجاه المعركة .

وفى الوقت ذاته فان الفرس لم يسلموا بهزيمة الفيلة ، وانما احدثوا تطورا فى استخدامها وذلك بدفع قوات راكبة « خيالة حولها لحمايتها من الفدائيين ، ومع هذا فقد انتهت المفاجأة ولم تحقق اثرها الذى كان منتظرا ».

واستمرت المعركة على اشدها بين الفريقين وقد تميزت باقدام العرب واندفاعهم فى حومة الموت ، وتأرجح المصير حتى أن أوامر القائد العام لم تعد مسيطرة على الموقف فقد اندفع طلحة فى ناحية والقعقاع فى ناحية أخرى ومضى الليلة فى عراك وخيم العاقبة حتى اذا طلع الصبح اتضح أن العرب هم الاعلون واشتد القتال حتى الظهيرة وبدأ الخلل يتسرب الى صفوف الفرس ، وضاع أمل قائدهم فاسلم الى الفرار ، ولكن جماعة من المسلمين احسوا بمحاولته فمضوا وراءه حتى امسكوا به ، واستطاع هلال التيمى احد رجال القعقاع ان يقتله بضربة سيف ويصيح « قتلت رستم ورب الكعبة » .

حدثت الهزيمة اذن ، واقرها قائد الفرس ، فحدث الانهيار فى الجبهة ولم تستطع محاولات « الجالينوس » ـ القائد التالى لرستم ـ ان تنقذ الجيش المنهار ففرق ثلاثون الف فارس فى النهر .

متابعة النجاح

واجرى سعد ما يسمى فى العرف الحديث ـ عملية اعادة التنظيم ـ كما اجرى عملية مطاردة القوات المنسحبة ، حتى اذا اطمأن على الموقف بعث الى الخليفة ينهى اليه بخبر النصر .

« اما بعد ، فان الله نصرنا على اهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من اهل دينهم بعد قتال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، واتبعهم المسلمون على الانهار فى الفجاج .

وجاء رد الخليفة ان يبقى القائد فى القادسية حتى تصدر اوامر اخرى وقد جاءت هذه الأوامر بعد شهرين بالسير الى المدائن ، فدفع اليها بمقدمة على راسها زهرة بن الحوية ثم عبد الله بن المعتم ، فالتقوا بحاميات فى الطريق وفلول قوات منهزمة ومقاومات محدودة كان اهمها ما حدث فى بابل ووصفته الكتب القديمة بانه « كلفت الرداء » ثم هزم جنود « المظلم » الذين كانوا يقسمون بأن ملك فارس لن يزول ماعاشوا .. فلما دخلها سعد قرأ « أو لم تكونوا اقسمتم من قبل ما لكم من زوال » .

وحاصر سعد بلد « بهرسير » شهرين مستخدما المنجانيق والعرادات « الدبابات » ـ وهى الأسلحة المؤثرة فى الحصار ـ حتى تم غزوها واسر اهلها .

عبور النهر

اخذ سعد يفكر فى عبور نهر دجلة الى المدائن .

كان امامه طريقان : اما العبور على سفن ، وهو ما لم يكن متيسرا ، حيث ان الفرس لم يتركوا ذات الواح ودسر .

واما الخوض : وهو مالم يكن على علم به .. فاخذ فى دراسة طريق العبور .

والموانع المائية تعد فى مقدمة ما يضايق الجيوش فى تحركاتها ـ سواء فى الماضى او فى الحاضر ـ وخاصة اذا كان العبور الى ساحة المعركة الحاسمة .

وقرر سعد العبور من مخاضة دله عليها بعض الدارسين لطبيعة المنطقة ولم تكن المشكلة مشكلة العبور فى حد ذاته ، فقد كانت هناك مشكلات أخرى : تأمين العبور ـ الدفاع عن المنطقة ـ المقدمة ـ رأس الكوبرى .

وكان ينتظره على الضفة الأخرى ، بلا ريب ، خطة مقابلة رتبها الأعداء !

ودفع سعد بمقدمة على راسها عاصم بن عمرو ، وصاح عاصم فى جنوده الستمائة « الرماح .. الرماح .. اشرعوها وتوخوا العيون » !

وقالت المصادر القديمة ان من لم يقتل من الفرس صار اعورا !

ونجحت معركة العبور ، وتلاحق معظم الجند ، وركبوا اللج ، وان دجلة لترمى بالزبد وان الناس ليتحدثون فى عبورهم ما يكترثون كما يتحدثون فى مسيرهم على الأرض ، وطبقوا دجلة خيلا ورجلا حتى ما يرى الماء من الشاطىء احد ، ثم خرجوا من الماء والخيل تنفض اعرافها صاهلة .. فلما راى الفرس ذلك انطلقوا لا يلوون على شىء وانتهى المسلمون الى القصر الأبيض .

دخل سعد المدائن وانتهى الى ايوان كسرى واقبل يقرا .

كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك واورثناها قوما آخرين » .

وهكذا قاد سعد معركته الكبرى ، وهى احدى معارك الاسلام الحاسمة فقضى على دولة الاكاسرة ، وترك الدليل على كفايته الحربية التى تضعه فى مصاف عظماء القادة ، فكان واسع الافق فى تقديره للموقف ووضعه للخطة واستشارته لرفقائه وتصرفه فى الازمات وصبره على المكاره .

وهو الى جانب كفايته الحربية كان من اعظم المسلمين شأنا وابقاهم اثرا ، واشتهر بصدق الحديث ودقته فى الرواية حتى قال عنه عمر بن الخطاب :

« اذا حدثك سعد عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلا تسأل عنه غيره » .

وكان كريم الاخلاق ثابت الوفاء ، وقد روى عنه انه كان بينه وبين خالد كلام فذهب رجل يقع فى خالد عند سعد ، فقال له سعد :

« مه ! . ان ما بيننا لم يبلغ ديننا » .

وهكذا ختم على فم النمام المغتاب .

وكان سعد رجل مبادىء فقد اسلم عن اقتناع ومضى فى صحبة الرسول وخلفائه عن عقيدة ، فاذا صادفه أمر على غير ما يرى سارع الى المجاهرة به ، حتى انه كان يراجع النبى — صلى الله عليه وسلم .

وقد كان احد الستة اصحاب الشورى الذين عهد اليهم عمر ؛ وكانت له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأباها ، حتى قال له ابن اخيه هاشم ان مائة الف سيف تريدك ... فرفض ، واعتزل الفتنة .

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الامر له قال :
السلام عليك ايها الملك .
فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت يا أمير المؤمنين ».
فقال سعد : والله ما أحب انى وليتها به ! (يقصد انه بالسيف).

قائد الوحدة العربية

صلاح الدين الأيوبي



ان التاريخ يعيد نفسه ..
وان عهد صلاح الدين يوشك
ان يعود ..

ما اشبه الليلة بالبارحة .

ان نفس المأساة يراد تمثيلها من جديد « وعلى نفس المسرح » فلسطين !

البارحة : غارات الصليب بدعوى حماية الأماكن المقدسة !

والليلة محاولات الاستعمار بدعوى انشاء موطن لليهود !

والهدف : اذلال وطن عربى تحت أقدام الغرب فلا تقوم له قائمة .

والطريقة : اشاعة الفرقة والبغضاء بين العرب فتبدد قوتهم وتذهب ريحهم فيستسلمون !

وكادت المؤامرة أن تنجح فى الماضى بسبب أطماع الحاكمين وضعف المحكومين وتفرق الكلمة وتفتت الوحدة . فأقبل الخطر بخيله ورجله ودعواه ودعايته ، وتعرض الوطن العربى الغالى للضياع والمذلة لولا رحمة الله ، فجعل على « صلاح الدين يوسف بن أيوب » وحدة العرب ، وتجميع قواهم ، وقد أهلته بصيرته النافذة وسجاياه الحميدة وخبرته بفنون الحرب والحكم ، فقاد الجيش العربى الموحد وصد غارات الصليب عن الشرق وأهله واستبقى للحضارة الاسلامية حياتها وقوتها .

وكادت المؤامرة ان تنجح فى الحاضر ، بفضل الدعاية العالمية التى عمت الأقطار الغربية لنصرة الصهيونية ، وبفضل المحاولات الاستعمارية للنيل من وحدة العرب وتفرق كلمتهم ، بالضغط تارة وبالرشوة تارة اخرى ، والاغراء بالمعونة الاقتصادية والدعوة للأحلاف العسكرية .. نعم كادت المؤامرة ان تنجح لولا يقظة الشعوب العربية وفطنتها لما يجرى من محاولات وما يبيت للوحدة

العربيــة بليل ، فكشف عن سلسلة المؤامرات ، وعرفت من بين ابنائها المخدوعين والطامعين الذين انكشف امرهم وافتضح سرهم .

وها هى ذى الشعوب العربية تناضل ، وآمال الملايين ترتقب الزحف المقدس فى الساعة المناسبة لتخليص الوطن العربى من تلك الظاهرة الشاذة والرقعة البالية التى يراد الصاقها بالثوب العربى .

ومثلما استطاع الصليبيون ان يحرزوا النصر فى بعض المعارك ، فقد كان الفوز الأخير للشعوب العربية وجيوشها المتحدة .

ان عهدا لصلاح الدين يوشك أن يعود .

لم يكن صلاح الدين ملكا بالوراثة ، أو حاكما بمقتضى الصدفة ، ولكنه جاء من عامة الشعب عربيا مخلصا لعروبته مسلما غيورا على دينه ، وقائدا من الذين قلما يجود بمثلهم الدهر ، وعبقـريا من أصحاب التاريخ الذى يختصهم بأحداثه الباهرة ووقائعه الفاصلة فيؤثرون فى مصائر اممهم ومستقبل العالم بأسره .

انه أحد الكبار الذين انجبتهم الدنيا فاعتز به الشرق وازدان به تاريخ الجهاد فى الدين والوطن .

اتته الوزارة منقادة فاحسن القيـــام بشئونها واجاد تصريف امورها ، فى ولاء واخلاص وكفاية ، وانتهت اليه القيادة فنهض بأعبائها واضطلع بمسئولياتها وخف الى الحرب موفور العدة مسدد الخطة فأحرز غاية النصر وبلغ قمة الظفر .

عاصر صلاح الدين فترة المحنة الكبرى التى حلت بالمسلمين والحادثة الشنعاء التى تعرض لها الغرب والشرق ، فأسرع بأخذ بيده القوية راية الاسلام ويدفع بقيادته الرشيدة جيش المسلمين قصد الخطر ، وقضى على قوات الشر وحال دون تعديل خريطـة العالم .

ان الحديث عن صلاح الدين وعهده يقتضى بادىء ذى بدء بيان أمرين :

الأول : انحلال الدولة العباسية .

والثاني : اسباب الحروب الصليبية .

وهما الظاهرتان السابقتان لدور صلاح الدين .

كانت الدولة العباسية تعتمد على الموالى ، فقد قامت على يد الفرس من أهل خراسان وازداد نفـوذ الموالى حتى قلدوا الوزارة وصارت لهم الكلمة .. فكانت ثمة ثغـرة أخذت تتسـع حتى اذا انتهت حياة الرشيد ظهرت الفرقة واضحة ، والأزمة مستحكمة بين العنصرين الكبيرين اللذين تقوم عليهما الدولة : العرب والموالى .

وجاء المأمون فجعل طاهر بن الحسين واليا على بلاد خراسان والجزيرة بالوراثة ، فصارت ثمة دولة داخل الدولة ، وتحفز الولاة الآخرون لمثل هذا الاستقلال .

ثم جاء المعتصم يستعين بعنصر جديد غريب ، وهو عنصر المماليك ، من الشبان الاتراك الممتازين بالقوة والوسامة ، وقيل فى ذلك أنه يتحرز من الفرس الذين يأتمرون به ويبيتون لخلعه وانه يخشى بأس العرب .. وخاصة انصار العلويين ، ولهذا فانه أراد ان يتخذ له جندا من الأتراك ـ وقد كانت أمه تركية ـ فيأمن جانب المخالفين بجيش من حلفائه الجدد ؟

وغاب عن فطنة ذلك الخليفة انه يستعدى الأجانب على الأهالى وانه يتجاهل طبائع الشعوب ، فأنزل من حسابه العرب .. وراح يتطلب العزوة والعصبية فى قوم اغراب ، لا يهمهم من أمر هذا الوطن غير منافعهم الشخصية .. ولا ضير بعد ذلك اذا دامت الدولة او دالت .

وقد عبر شاعر النيل عن هذه الظاهرة الغريبة بقوله :

واها على دولة بالأمس قد ملأت
جوانب الشرق رغدا من اياديهـا

لو انها فى صميم العـرب قد بقيت
لمـا نعـاها على الايام ناعيهـا

ياليتهم سـمعوا ما قاله عمـر
والروح قد بلغت منـه تراقيهـا

لا تكثـروا من مواليـكم فان لهـم
مطامعا بسمات الضعف تخفيها !

وقد ظهرت هذه المطامع فعلا وتطورت حتى صـار لاصحابها النفوذ ، ودانت لهم السلطة ، وانتهت اليهم امور الدولة يصرفونها وفق اهوائهم ، بينما تلاشت العصبية العربية وضعف نفوذ الخليفة وصارت البلاد ولايات تسعى للانفصال ، واخذ سوس الفساد ينخر فى عظام الدولة ، واصبح السلطان الحقيقى للماليك الأتراك من سنة ٢٣٢ الى ٣٣٤ هـ .

ثم ظهر عنصر جديد فى بلاد الديلم يقـوده اولاد بويه الذين انتزعوا السلطان من الأتراك فى بغداد واستتب لهم الأمر بين عامى ٣٣٤ و ٤٤٧ وخلفهم آل سلجوق من ٤٤٧ الى ٥٤٧ وكانت هذه الفترة الأخيرة مشحونة بالاحداث الكبرى فبدات غارات الصليب التى استمرت ما يقرب من مائتى سنة (من ٤٩٠ الى ٦٦٠ هـ) وكانت أهم وقائعها « حطين » سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، وهى الموقعة الشهيرة التى انتصر فيها البطل الأشهر صلاح الدين .

لقد كان ضعف القيادة هو السبب الأول فى انحطاط الدولة العباسية اذ انصرف الخلفاء عن الجهاد وحكمت عناصر اجنبية ، وشاعت الفرقة وعمت عوامل الفوضى والانحلال مما اورد البلاد موارد الضياع ، فصارت حمى مباحا !

أما الحرب الصليبية فكانت حادثة جنون من حوادث التاريخ الشاذة جاءت من الغرب كالريح الهوجاء تذكوها النعرة الدينية

وتدفعها الأطماع الأشعبية فشغلت من عمر الدهـر قرنين كاملين عبات خلالهما اوربا قوات تستظل بالصليب وتدعى حماية بيت المقدس وتنشد دحر المسلمين وقهر الوطن العربى .

وقد اعتبر بعض الدعاة هذه الغارات حربا دينية بفكرة انها تتجه الى الأماكن المقدسة تحمل شارات الصليب ، ولكن ثبت قطعا انها كانت ايضا حربا سياسية فقـد ارادت الدولة البيزنطية أن تستعيد ما كان لها فى مصر والشام وفلسطين منذ فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس ، ولهذا جرت اشتباكات عديدة على مر السنين بين « الفرنج » والمسلمين ، ومن اشهرها معركة « عمورية » التى انتصر فيها الخليفة المعتصم فى العصر العباسى الأول ثم الوقائع التى دارت بين البيزنطيين ودولة الحمدانيين وفيها تم اخراج العرب من جزيرة كريت واستيلائهم على بعض بلاد الشام الى أن جاءت دولة الفاطميين فى مصر والسلجوقيين فى الشام فاستفادوا المدن والحصون وشددوا النكير على البيزنطيين .

ولهذا كانت الامبراطورية البيزنطية ترتقب الفرصـة التى تستعيد فيها نفوذها وتسترجع ما كان بيدها فلما قامت حركة بطرس الراهب ونجح فى اثارة الحمية الدينية فى قلوب المسيحيين فى اوربا بمساعدة البابا أورانس الثانى ، كانت ثمة فكرتان تدفعان الى الغارات الصليبية : فكرة شرقية تنطوى على أهداف عسكرية وسياسة وفكرة غربيـة تنطوى على الغيرة الدينية . . ولم تكن العلاقة بين الكنيستين تخلو من اسباب الخداع .

اما الأقطار الاسلامية التى كان يتهددها ذلك الخطر فكانت موزعة بين خلافتين : الخلافة الفاطمية فى مصر ، والخلافة العباسية فى بغداد .. وكانت جميعا تعانى من الوهن وسوء الحكم وشيوع الفرقة ما يغرى بالاغارة عليها واستباحة حماها .

وجاءت غارة الصليب الاولى فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) وقد نجحت فى تكوين مملكة لاتينية فى القدس وانطاكية والرها .

وتمت الغارة الثانية فى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) فى عهد السلطان نور الدين محمود ، ولم تتحقق اهدافها .

اما الغارة الثالثة فكانت فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى سدد للصليبيين ضربة قاصمة فى « حطين » .

نشأ صلاح الدين الأيوبى فى بيت كريم المحتد من اشراف الأكراد وكان مولده بمدينة تكريت سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) ، وقد ذكرت بعض المصادر أن مولده صادف حادثا ذا بال ففى ذلك اليوم صدر أمر الحاكم بطرد والده نجم الدين أيوب وعمه اسد الدين شيركوه من مدينة تكريت .

ومد القدر خيوطه فاشتبكت بالأسرة المهاجرة وشدتها نحو عماد الدين زنكى صاحب الموصل ، وكان له سابق معرفة بنجم الدين أيوب فقربه اليه وعينه محافظا على بعلبك سنة ١١٣٩ ، ثم رحل بعد موت عماد الدين الى دمشق ، وتقلب فى مناصب الجيش حتى صار قائدا لقواتها ، بينما أصبح صلاح الدين شيركوه قائدا فى جيش نور الدين محمود ، فلما شب صلاح الدين رأى والده قائدا عاما ، وعمه قائدا عاما .

ثم أصبح نجم الدين حاكما لدمشق ، وقرب صلاح الدين من السلطان نور الدين ــ سلطان الشام ــ الذى غمره برعايته وأثر فى شخصيته .

وكانت الدولة الفاطمية تحكم مصر فى ذلك الزمان ، وقد مالت شمس الفاطميين الى المغيب ، وذهب الطامعون فى النفوذ كل مذهب حتى استعانوا بأعداء البلاد فاستنجد الوزير الدرغام بملك القدس ولجأ « شاور » الى نور الدين ، الذى بعث الى مصر جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه ، وكان صلاح الدين يصحب عمه فى غزواته ،

ويتولى قيادة قسم من الجيش فابلى البلاء الحسن ، وكانت له وقائع مشهورة فى تلك السن المبكرة ، وخاصة بما وفق فيـــه من دفع الصليبيين عن الاسكندرية فى احدى غاراتهم البحرية .

ولم تكن ناحية القيــادة وحــدها هى التى لفتت الأنظار الى صلاح الدين ، فان شجاعته واقدامه وآدابه وحسن معاملته للأهالى قد جعلت له منزلة محمودة ، وقال فى ذلك احد المؤرخين :

« والذى ادهش المسيحيين من امر صلاح الدين هو مروءته وشهامته وكرمه وحلمه ومحافظته على العهود » .

اما عن الجيش الذى دفعـــه نور الدين الى مصر لانقاذها مما كانت عليه من فوضى واضطراب ، فقد اشتبك عدة اشتباكات مع الصليبيين فى غزوتين ، أما فى الغزوة الثالثة فقد استولى أسد الدين شيركوه على مصر بغير دماء ، وخلع عليه الخليفة الفاطمى الوزارة ، فعهد لابن أخيه صلاح الدين بمباشرة مهام الأمور .

وعلى اثر موت شيركوه ، لم يعد للوزارة غير صـــلاح الدين ، فصدر اليه أمر الخليفة الفاطمى فى ٢٣ مارس ١١٦٩ وقد جاء فيه :

« هذا عهد امير المؤمنين اليك ، وحجة عند الله لديك فاوف بعهدك وخذ كتاب أمير المؤمنين بيدك » .

وكان اللقب الذى عرف به صـــلاح الدين : « الملك الناصر ابو المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن ايوب » .

ولم يكن صلاح الدين حين قلد الوزارة قد أربى على الثانيــة والعشرين من عمره ولكنه عمر ملىء بجلائل الاعمال حافل بخبرة الحروب والقيادة والحكم ، وقد استطاع بحنكته وحكمته أن يظفر بحب المصريين ، والا يفقد ثقة نور الدين .

واخذ صلاح الدين يصلح الأمور التى تعرضت من قبل للفساد ، ويسعى لتوحيد البلاد وتقوية الجيش ، واستطاع ان يرد الصليبيين الذين اغاروا على دمياط ليتخذوا منها قاعدة للزحف على مصر ، ثم خطا خطوة جريئة ليقوى بها معنويات المسلمين والمصريين فقام باغارات على حدود فلسطين ، وكان فكره مشغولا بذلك اليوم الذى يخلصها فيه نهائيا من الصليبيين .

ومد القدر خيوطه مرة اخرى .. مات الخليفة الفاطمى العاضد سنة ١١٧١ ومات نور الدين محمود سنة ١١٧٤ ، ومات آمورى ملك القدس فى نفس السنة ، فزالت غياهب وغيوم وانزاحت عقبات ضخمة كان صلاح الدين يخشى بأسها .. وفجأة خلا الجو وأصبح السيد المطلق فى مصر والقائد الأوحد لجميع المسلمين .. فراح يجمع الصفوف ويحشد القوى ويستعد للذود عن حياض العروبة والاسلام .

وعندما قضي نور الدين ترك مكانه شاغرا ، لأن ولده الملك الصالح اسماعيل كان غلاما فى الحادية عشرة ، كذلك كان الحال فى فلسطين ، فقد ورث الملك آمورى ابنه بلدوين ، فمد صلاح الدين بصره الى المملكتين العظيمتين وكان أمله الأكبر توحيد مصر وسوريا وفلسطين . وبذلك وحده يمكن انقاذ الوطن العربى ودفع الخطر الصليبى .

وقد راعه ما ساد الشام من انقسام وما اعتراه من فوضى فكتب الى الخليفة المستضىء بالله يقول : « توافت لنا الاخبار بما عليه المملكة النورية من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطيعها ، وان كل قلعة حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمح اليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعا يخوفون بها الاطراف الاسلامية ويضايقون بها البلاد الشامية .. وعلمنا ان بيت المقدس ان لم تتيسر الأسباب لفتحه وامر الكفر أن لم يتجه العزم فى قلعة . لنبتت عروقه واتسعت على أهل البلاد خروقه .. وانا لانتمكن

بمصر منه مع بعد المسافة وانقطاع العمارة ، فاذا جاوزناه ، كانت المصلحة بادية والمنفعة جامعة واليد قادرة ، واصلحنا مافى الشام من عقائد معتلة وامور مختلة وحفظنا الولد القائم بعد أبيه فانا به اولى من قوم ياكلون الدنيا باسمه ويظهرون الوفاء فى خدمته .. والمراد هو كل ما يقوى الدولة ويؤكد الدعوة ويجمع الأمة » .

ومضى صلاح الدين الى ديار الشام فرحب به الأهالى وتالب عليه الحكام ! والتقى الجمعان قرب « حماة » فى معركة واحدة انتصر فيها صلاح الدين ثم تبع المنهزمين الى حلب فبعث اليه الملك الصالح برغبته فى وقف الحرب مع اقراره بما وصل اليه صلاح الدين من فتوح .. وفى شهر مايو ١١٧٥ صدر اليه امر الخليفة بتعيينه واليا من قبله على مصر والشام .

ولم تكن هذه غاية الغايات .. ذلك لأن الصليبيين مازالوا فى الميدان يفسدون الوحدة ويثيرون القلاقل ويأتمرون بالسلطان الجديد فى ناحية أخرى ، ولم يزل صلاح الدين بهؤلاء وأولئك حتى استتب له الأمر ورجحت له الكفة .

وكان يرى أن مصدر القوة للشرق فى « مصر » وأن طلعة الجهاد تبدأ من القاهرة فأنشأ سورا ضخما وقلعة منيعة كما نظم جيشا قويا مهيبا ، وكانت امنيته فى ان يوفر للبلاد أسباب المنعة وعوامل القوة فتلتف حولها قلوب المسلمين وتسعى للاتحاد معها بقية الأقطار .. فتتكون قوة كبرى موحدة لقهر الصليبيين واجلائهم عن فلسطين .

وقد أجرى صلاح الدين اصلاحات عدة فى مصر والشام فنظم شئون الحكم وارسى عوامل السكينة والثبات ، وقضى على سلطان الامراء ، ودخل حلب فاتحا غازيا فى شهر يونيو ١١٨٣ ثم خضعت له الموصل فى شهر فبراير ١١٨٥ ، وبذلك جمع كلمة المسلمين وقضى على العاصين واعد نفسه وبلاده للجهاد الأكبر .

كانت سياسة صلاح الدين تتلخص فى امرين :

اولهما ـ توحيد كلمة المسلمين .

ثانيهما ـ طرد الصليبيين من فلسطين .

وقد تم له تحقيق الهدف الأول فاصبح هو السلطان بغير منازع فى مصر والشام جميعا ، ثم شرع فى تحقيق هدفه الثانى وهو : دحر الصليبيين . وكان بين الطرفين هدنة نقضها الصليبيون باعتدائهم المنكر على احدى قوافل الحجاج المصريين ، مما اثار سخط المسلمين ، فلما انتهى اجل الهدنة تحركت قوات صلاح الدين الى المعركة الفاصلة التى طال ارتقابها .

وفى حطين حدثت معركة كبرى من معارك التاريخ الفاصلة التى غيرت مصائر الخلق وحددت معالم الدول ، فقد التقت الجيوش الاسلامية المتحدة بالجيوش الصليبية المعتدية ، وقائدها « صليب الصلبوت » .. فهزمهم صلاح الدين هزيمة منكرة وأسر ملكهم واسقط الصليب من يده وأمره بقتل « ارناط » الأمير الصليبى ـ الذى كان شديد الخصومة للمسلمين ـ انتقاما لما حدث لقافلة الحجاج المسلمين عند مرورها بالكرك .

ولم تستطع الحملة الثالثة من حملات الصليب أن تغير من وقائع الامر شيئا فقد ظهر للجميع مدى مايتمتع به السلطان صلاح الدين من قوة ومنعة ، وكان رتشارد الأول ملك الانجليز (قلب الأسد) قد اعجب بصلاح الدين وادرك أن هزيمته غير ممكنة وان اتحاد الأقطار الاسلامية قد ضيع الفرصة على الصليبيين ، فكتب اليه يعرض شروطا للصلح لم يقبلها صلاح الدين ، ورد عليه برأيه النهائى فى هذا الموضوع فى كتاب تاريخى جدير بالذكر والتقدير :

« اما القدس فهو لنا كما هو لكم ، وهو عندنا اعظم مما عندكم ففيه مسرى نبينا ومجمع الملائكة .. فلا تتصور اننا ننزل عنه !

اما البلاد فهى لنا فى الأصل ، واستيلاؤكم عليها كان طارئا لضعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الحين » .

وبعد ، فهذه رسالة صلاح الدين .

وهى رسالة صالحة لأيامنا هذه رغم مرور مئات السنين .

ولو اننا اخذنا بهذه الرسالة فجعلناها سياسة .. لحق للبلاد العربية النصر المبين .

وخلاصة الرسالة او السياسة : ان بلاد العرب للعرب وحدهم . وأن وجود الصهيونيين ظاهرة شاذة كوجود الصليبيين بالأمس !

وهدف الرسالة أو السياسة هو توحيد الصفوف وجمع كلمة العرب ، وبهذا نفوت الفرصة على الصهيونية ومن ورائها الاستعمار ، ويقضى على كل نفوذ أجنبى القضاء النهائى .

حقا ان التاريخ يعيد نفسه .

وان عهدا لصلاح الدين يوشك أن يعود .

القائد الآسيوى :

جنكيز خان



« سفاح الشعوب الذى قاد وحوشا ضارية لم يعهد لها مثيل فى القوة والباس » .

الله فى سمائه ، وجنكيز فى الأرض .

ظل قوة الله .

خاقان التتار ، وعاهل جميع الشعوب .

وقفت أمام هذا الوصف العجيب الذى اختاره لنفسه القائد المغولى الأمى « جنكيز خان » فلم أجد له مثيلا فيما أطلق على القادة والأباطرة فى جميع الأزمان ، وكلما تقدمت فى دراسة تاريخ هذا الجندى الرهيب ، رأيت اصلا بلا صورة ، وشخصية بغير نظير ، ليس فقط لما انفرد به من شهرة داوية فى سفك الدماء ونهب الأعمار والقضاء على الأخضر واليابس ، ولكن أيضا لما أوتى من عبقرية عسكرية وميزات وصفات تضعه فى مصاف كبار القادة ، حتى قال نابليون :

لم يوفقنى الله مثلما وفق جنكيز خان .

سفاح الشعوب

ولعل الصورة التى ارتسمت فى أذهان القراء ـ من فعل سطور عابرة غير موثوق بصحتها ان هذا القائد الهمجى البدائى كان يعتمد على كثرة اعوانه المرتزقة المتعطشين للغذاء والدماء فراح ينتقل بهم من مجزرة الى مجزرة ليطعمون ويشبعون ما فى نفوسهم الحاقدة ، ويقتلون ويسلبون ويدمرون وفق شعارهم : اضرب وخرب .

ولكن الذى يلجأ للدراسة المستفيضة ويرجع الى المصادر العليمة والمراجع الثابتة التى احاطت بعصر جنكيزخان وظروف الحياة وتاثيرات البيئة والطبيعة واوفت فى الكشف عن سيطرته على قومه وقيادته لرجاله وتنظيمه لجيشه وتخطيطه لمعاركه وفهمه

الطبيعي لمقتضيات الحرب ودرجه على مبادئها واصولها .. يعلم ان جنكيزخان كان شخصية فذة وقائدا موهوبا وحاكما بارعا وقديرا وفاتحا ، ورجل دولة ، وقد أثر عنه قوله :

ان من يقدر على حفظ نظام بيته يستطيع اقامة النظام فى امبراطوريته ومن يستطيع قيادة عشر رجال بطريقة صحيحة يمكن أن يقود عشرة آلاف رجل .

رب القوة والبطولة

نبت جنكيز فى ارض التتار باقليم دولون يلدق بشرق آسيا ، وكان مولده سنة ١١٥٥ وأبوه من زعماء القبائل المسموعى الكلمة المطبوعين على الحرب والسلب والنهب فنشأ فى معسكر الرجال المحاربين يرى الصفوف تلو الصفوف تندفع باشارة من قائدها وتسابق الريح فى عدوانها وتغير على المدينة فتقتل رجالها وتسبى نسائها وتنزع خيراتها وتجعل عاليها سافلها .

ورأى القبائل تتنازع وتتحارب ، والعاقبة للأقوياء والرجال يلفون ويدورون لكى يظفر الواحد بخصمه ، أو يخدع الحليف حليفه فيغدر به ويجهز عليه .

وكان من الأمور المألوفة أن يحدث القتل فى وضح النهار أو تتم الغزوة فجاة بلا سابق انذار . فغاية الفرد أو القبيلة هى قهر الخصوم ، ولا بأس ان يكون قهر الحلفاء ايضا . أو تدمير اقرب الاقرباء .

فلا عجب ان رأينا جنكيز خان مطلخ اليد منزوع العاطفة ، ولو لم يفعل لقضى على نفسه فى بداية حياته ! فقتل اخاه وصرع عمه وشنق حلفاءه الغادرين والقى فى الماء المغلى العاصين والمتمودين، واغار على القبائل فقتل وسبى وغنم ، وغزا المدائن فحرقها ولم يترك زرعا ولا ضرعا ، وبهذا حقق نداء بيئته ونال النصر على

خصومه وجيرانه . وجعل لنفسه امبراطورية عظمى ، واسما خالدا بين عباقرة العالمين .

ولو كان جنكيزخان رجلا عاديا لفقد كل شيء بفقد والده ، اذ انفض عنه الرجال وادارت له القبائل ظهر المجن وصار مهددا واسرته بالفناء فهجر ارضه واختفى باسرته فى مجاهل الجبال . ولكن قلبه كان مشغولا بالعلا وعقله كان يفكر فى الانتقام والسيطرة والسلطان ، فبارح مكمنه وراح يغير اغارات موفقة لايجيدها الا الشجاع الجرىء ، وذاع امر هذه الاحداث المثيرة وبدا نجمه يلمع وعوده يشتد واعوانه يتزايدون .

ولم يعد اسم « تيموجين » مناسبا للقائد الشاب ، فسمى نفسه جنكيزخان ـ اى مبعوث السماء ـ ووجد الامارة التى خلفها له ابوه بوكاى غير كافية لآماله واطماعه فبسط نفوذه على سائر الرؤساء ، ولم تعجبه تسمية التتار فاختار لشعبه اسم المغول ـ اى الغزاة ـ واصبح هو الخاقان الأعظم فى عام ١٢٠٣ ، وهو فى سن الخمسين ، وقد نضجت عقليته واتسعت حيلته وتفتحت عبقريته واخذ يحقق حلمه الكبير : قهر العالم .

وقد سئل ذات مرة عن تلقيبه برب القوة والبطولة فقال :

لقد هاجمنى فى صباى ست رجال وكادوا أن يقضوا على القضاء المبرم لولا أن حمانى الاله من شرهم ورد كيدهم الى صدورهم ، ثم قضى سيفى قضاءه فى رقابهم !

كتلة من الدم

كان التتار شعبا موزعا لاتجتمع قبائله على كلمة . وان اجتمعت على صفاتها فى الدمار والهمجية ، وكانت مضاربهم فى

صحراء الجوبى ـ جنوب بحيرة بيقول هى ـ مسرح عمليات اعتداء وغزوات لا نهاية لها .

ففى تلك الفيافى الشاسعة فى وسط وشرق آسيا نشأ التتار ـ من أصل الجنس التنجوسى ـ وهم اصل أهالى الصين وكوريا ومنشوريا وايران والهند وبعض بلدان آسيا الصغرى وشرق أوروبا .

واشهر ما عرف عن التتار التطاحن فيما بينهم على امتلاك المراعى والحيوان واغارتهم العنيفة وقتالهم الدموى الرهيب . وهذه كانت البيئة التى نشأ فيها جنكيز خان ، وقيل انه ولد وفى يده كتلة من الدم ، وبدأ طريقه الدموى بقتل أخيه غير الشقيق ـ بايكتار ـ لأنه اغتصب منه سـمكة ! وشنق ابن عمه « شاموكا » بخيط رفيع من الحرير !.

وكانت أول معاركه الحاسمة الفاصلة : القضاء على قبيلـة التايدجوت ، أول القبائل التى تألبت عليه عند وفاة أبيه ، وكادت تقضى عليه ، وقد كانت أشد القبائل بأسا واعزها جندا فلما طوى صفحتها دانت له الزعامة وصار صاحب الكلمة فى منطقة شمال الجوبى واصبح فى استطاعته أن يبسط سلطانه وما شاءت له همته .. وقد كان يبرق فى فكره مشروع توحيد الجنس المغولى فى وسط آسيا وانشاء امبراطورية عظمى .

ولم تكن مهمة جنكيز هينة اذا نظرنا الى طبيعة المغول ولكن همته لم تعرف المستحيل فكان عليه ان يضم قبائل شديدة البأس مثل البورشيكون والتتر والبورتمور والقرايطة والركيت والتندرا ، وان يحكم كل آسيا الشرقية من صحراء الجوبى فى حدود منشوريا الى دولة الخطا غربا ، ثم شمالا الى سيبيريا ... وقد كشف عن خطته وواجه بها شعبه فقال :

لقد استقر رايى على ان ادعو اولئك الذين آلوا على انفسهم مشاركتى السراء والضراء ومقاسمتى حلو الحياة ومرها ، اولئك الذين لهم نقاء البللور ، عزمت على ان ادعوهم شعب المغول ، وان غاية ما اتمناه هو رفع شعبنا الى مرتبة السيادة فى العالم .

يحيـا السيف

استطاع تيموجين الشاب القوى الشجاع الذى يحفظ اسرته التى تهددت بالضياع عقب موت ابيه ان يظلها بسيفه ويحمى حماها ويستعيد شأنها فعاد اليها مجدها الغابر والتف حولها الأنصار ، ودوى أسم عاهلها الدموى فى جميع الأقطار .

فهو قد بدأ بدرء الخطر عن قبيلته ثم تسنى باخضاع القبائل المجاورة ، فلما تمكن من خصومه الأقربين وامن مغبة المؤامرات والفتن ذهب يدور ببصره عبر هذه الحدود المتواضعة ، فقد كان يحلم بامبراطورية عظمى يجول فيها بعقله وسيفه .

وقد كانت لهذا القائد التترى الأمى فطانة حربية قليلة النظير ، فهو رغم تشبعه بصفات قومه قد صقل نفسه وأعمل فكره وجاء بما لم يسبقه اليه احد فى فنون الحرب ونظم الحكم ، وهيأته فطانته لأن يقتحم ساحة التاريخ وينصب نفسه بين كبار القادة فى جميع الأزمان .

كان قائدا بالطبيعة تجمعت له صفات الجندية كاملة من شجاعة وهيبة ومقدرة على مواجهة المشكلات الى ذكاء وشدة وسرعة فى تحقيق الاهداف ، وكان حذرا ينام وهو محتضن سيفه وعلى مقربة من مربط الفرس ، كما كان يوصى اتباعه ان يفعلوا ، وكان له ولع بمشاهدة المعارك وخوضها وتدبر اسرارها وسبر اغوارها فتزايدت مع الايام تجربته وصقلت معارفه ، ولم يجد فى طبعه ميلا

الى الدعة والاستسلام او الرغبة في حياة الرغد والسلام ، وانما كانت حياة التقشف والاعتدال والمناورة وقهر الخصوم هي التي تستهويه وتملك عليه حواسه ، وقد قال :

ان جماع سرور المرء ، في دحر اعدائه وسوقهم امامه والاستيلاء على ما يملكون .

وكان يرتدي ثيابا بسيطة فلا يميزه عن رجاله سوى قرط ثقيل من الذهب يتدلى من اذنه ، وحصانه الأدهم ، ورايته البيضاء التي جعلها عنوانا لسطوته وسلطانه ، وعليها ذيول تسعة وعول .

وقد وصفه احد اتباعه بانه كان طويل القامة ، قوي البنية ، شديد الذكاء ، له جبهة عالية ، ولحية طويلة ناحلة حمراء كأنها شعلة من لهب ، وعينان صغيرتان صفراوان كعيني القطط تشعان بالصرامة والقسوة والكبرياء .

ولقد كان معتدلا في عاداته فلم يعرف عنه الاسراف في طعام أو ملاذ ، وقد أثر عنه قوله « اياك ... اياك وشرب الخمر اكثر من ثلاث مرات . فان استطعت فمرتين أو مرة ، وتحسن اذا لم تذق الخمر على الاطلاق » .

وكان ماهرا في الفروسية والرماية الى حد بعيد ، خبيرا بالرجال يعطف على المخلصين الجادين البواسل ويشجعهم ويتلطف معهم ويوزع عليهم مغانم الحرب ، ولكنه كان غادرا فظيعا لا يعرف قلبه الرحمة اذا خدعه احد او تآمرت عليه جماعة فيندفع الى الاقتصاص « كعامود متحرك من نار جهنم » .

ولو كان جنكيزخان رجلا همجيا معتمدا على القوة وحدها لما استطاع ان يجمع حوله قادة ممتازين ـ مثل سابوتي الذي

يعتبر من أعظم قواد التاريخ كله ــ فقد درج جنكيز على اصطفاء الرجال الأقوياء الأمناء وخاصة من الشبان الذين وثق من ولائهم وكفايتهم فجعلهم على راس وحداته التى يعتمد عليها فى غزواته وفتوحاته العظمى .

وقد اخذ جنكيز عن المغول عقيدتهم الحربية ــ افناء العدو ــ وحققها بأبشع الوسائل ، فكانت خطته الحربية دهم العدو بالحيلة والخديعة واجتياح كل شىء يوصله الى الغرض ولو قلب البلدة الى مقبرة كبيرة .. وبعدها تفلح الأرض وينبت الحب وتنبعث الحياة من جديد .

وكان لاصبر له على الحرب ، فلا ينته من معركة حتى يفكر فى اخرى ، ويظل يبحث عن غريم ويسعى الى غزوات متتابعة ، فاذا بدت فى الأفق حرب جديدة هدات أعصابه وصاح فيمن حوله :

حسنا جدا . هاتو الى جوادى وسيفى ، فلننتحب العالم لكى يسعد جنكيز .. يحيا السيف . تحيا الحر. ..

لا سلام بغير حرب

« افطر بعدوك قبل أن يتغذى بك »

كان هذا أول درس تعلمه جنكيزخان عقب . وفاة والده فقد انقض عليه جيرانه « التايدجوت » وكادوا يفتكون به ففر بأسرته الى الجبال وكان يخرج فى حذر الى القنص ويعود بالغذاء ، وشرع فى عمل بعض غارات عاد منها بالخيل ، والرجال ، فان الرجال دائما يتبعون القوى ويقبلون على محالفته والعمل معه ، وقد راعهم ذلك النجم الثاقب الذى دوت شهرته فى الفيافى والقفار فأقبلوا عليه واستظلوا بنور قوته وعقليته .

وسعى الى التحالف مع قبيلة القرايطة الأشداء ــ وكانت خطوة تدل على الحصافة وبعد النظر ، اذ ذهب اليهم فى ثياب

القوى المقتدر فاقبلوا على محالفته ـ واشترك جنكيز مع عمه طغرل خان ضد خصوم الطرفين ، فهذه معاهدة تحالف ودفاع مشترك جعلتهما يتعاونان فى بعض الغزوات التى اظهرت قيمة جنكيز وادارت الأذهان اليه فوجد فيه التتار جنديا باسلا وواضع خطط محنك .

لم يكن فكره مشغولا بدفع الأعداء عنه فحسب ، بل كان ينظر الى توحيد القبائل جميعا تحت امارته وجعل الجميع أسرة واحدة وجيشا واحدا يأتمر بأمره . ومن ثم يستطيع أن يغزو به العالم المتحضر ويصبح سيدا كبيرا ... وفى هذا السبيل كان يعمل بالسياسة والقوة وقال : « لقد علمنا كبارنا أن القلوب المتنافرة والعقول المختلفة لن تجتمع فى جسد واحد ، غير انى عازم على تحقيق هذه الغاية بعد فرض سلطانى على جميع ما حولى » .

وقد اشترك جنكيزخان وعمه طغرل خان فى معاونة امبراطور الخطا ضد التتار فتم لهم النصر ، وظهرت فى هذه المعارك عبقرية جنكيزخان الذى منحه الامبراطور سريرا من الفضة مغطى بنسيج من الحرير الموشى بالذهب ، واطلق عليه لقب « القائد ضد الثوار » .

وظهرت المنافسة بين طغرل خان وجنكيزخان ، كان اولهما صاحب حول وطول ، فجاء الثانى ينازعه مكانته المرموقة ، وحدث احتكاك بين الفريقين على صورة « حوادث الحدود » واخذ كل فريق يأتمر بالآخر ، وكان للقرايطة السبق فى الاستعداد والتعدى ، وبدأ زحفهم الكبير الذى لم يكن فى استطاعة جنكيز أن يواجهه بقوته ، فراح يواجهه بحكمته وحيلته .

وقام جنكيز بأكبر عملية تمويه وخداع اذ اصدر اوامره بترك معسكراته على حالها ـ كأنها عامرة بالجند والسلاح ـ وانسحب فى جنح الظلام انسحابا لم تفارقه مبادىء الوقاية والسلامة مدى

تسعة اميال . وقسم رجاله الى قوة ساترة واخرى ضاربة . وبينما كان شارعا فى تنفيذ خطته كان القرايطة يدبرون له بليل وينسلون فى ستر الظلام الى معسكره ، وخيمته بالذات ، ولما ظنوا انهم ادركوا غرضهم واوشكوا النيل منه فوجئوا بالخطة الماكرة وطارت نفوسهم شعاعا من هول ما راوا من تمويه وتضليل لم يعرفوا ما وراءه ... فانطلقوا يقتفون الاثر ويضربون فى الأرض بحثا عن غريمهم الخطر ، فاستقبلتهم طلائعه بحملات صادقة وبدات المعركة بين مجموعتين غير متكافئتين فى القوة ، فلم يتغلب العدد على الجسارة ولم تنتصر الأسلحة على العزائم ... وامر جنكيزخان أحد اتباعه الشجعان ـ جـولدار ـ فقام بعملية « التلوعما » أى حركة الالتفاف حول مؤخرة العدو واحرز نصرا مؤزرا تحدثت به الأساطير .

وقال وانج خان : لقد كنا نقاتل رجلا ما كان ينبغى أن نقاتله .

وجمع جنكيزخان مجلس الحرب ـ من زعماء القبائل والقادة ـ وعرض عليه الموقف . وما كان من اعتداء القرايطة ، فاتخذ المجلس قرارا بتوليته قائدا لجميع قوات المغول ، وتسلمه صولجان الرئاسة ، فطلب اليهم ان يكونوا عند كلمتهم وأن يطيعوا كل أمر يصدر عنه وختم وعده ووعيده بقوله :

لقد انتويت المحافظة على أرض أسلافنا وتقاليدهم وسأجلب لكم راس طغرل خان وولده .

الحرب خدعة

قال القائد العالمى « سابوتاى » لزعيمه جنكيزخان :

« سأدرأ عنك خصمك كما يدرأ عنك اللباد لفح الريح » .

وانطلق الى معسكر الأعداء ، ممثلا انه هارب من قيد المغول الدموى ، وراح فى معقلات القرايطة ـ يذيع الأخبار الكاذبة وينطلق

بالمعلومات المضللة عن قوة جنكيز ومحلات جنوده ومدى استعداده وأراد الخصوم أن يتكشفوا الحقيقة ويعلموا مبلغ صدق معلوماته فارسلوه مع حملة من قواتهم نحو معسكرات المغول ، فوقعوا فى أسر جنكيز وقضى عليهم بينما اندفعت قواته نحو اراضى القرابطة فهزمتهم شر هزيمة .

وهنا خلا الجو لتحقيق أطماعه . فسارت جيوشه شرقا وغربا وشمالا وجنوبا واخذت امبراطوريته تتسع ونفوذه يمتد ، أو كما قال ماركوبولو : لقد شرع يفكر فى غزو بقية العالم !

وأعلن شعب المغول ولاءه للعاهل الرهيب ، الذى ينحدر من سلالة الآلهة والبوجدو الذى يعطى الحكمة والسلطان .

سور الصين

لم يقتنع جنكيزخان بما أحرز من نصر وفتوح يعجز عنها القادة الأشداء والملوك ذوى الطموح ولكنه كان يريد كل شيء ، كان لا يعرف الحدود والقيود وانما يمد بصره ما شاءت له مطامعه فيرى ما لا يراه غيره . ولقد سولت له عقليته الفذة ومقدرته الفائقة ان يكون سيد العالمين ودعته طباع قومه وعاداتهم الى المزيد من الفتح والتجوال والاسترسال ، وكان قد بلغ سور الصين العظيم الذى يحمى خلفه مملكة القطا ذات الثمرات والخيرات ، فأنفذ اليها بعض جواسيسه وكشافته يسيرون نحو الدفاعات ويتقصون أخبار الجند حتى تجمعت لدى سيدهم المعلومات اللازمة لمغامرته الجديدة . ثم تحركت طلائعه فكان على راس المقدمة قادته البواسل موهولى ونويون وسابوتاى .. على راس ثلاثين الف فارس ، لكل فارس جوادين ، ثم تقدمت القوة الرئيسية من مائتى الف جندى ونيف ، قسمت الى جناحين كل منهما خمسين الفا ، وقلب مكون من مائة الف ، فضلا عن الف فارس يكونون الحرس الخاص .

وقد فوجىء العـدو بهـذا الهجوم ـ الذى مهد له الطـابور الخامس ـ فانهارت مراكز الدفاع وتراجعت الصفوف ، ومـدت الهزيمة خطواتها بفعل الدعاية والاشاعات . ولكن روح الصين لم تهزم فقاتلوا ببسالة لامثيل لها للدفاع عن الامبراطور المقـدس وانتهت الحملة بغير نتيجة وارتد عاهل المغول بسهم فى ساقه .

وفى العام التالى قاد جنكيزخان حملة خطيرة مدمـرة اجتثت كل ما على الأرض وانقضت على العدو كالصاعقة الساحقة ، وفر الامبراطور وولى عهده وعم البـلاد الذعر والفوضى ، فاستسلمت للوحوش الضارية

ندمر .. ثم نبذر الشعير

وصلت امبراطورية جنكيز خان الى حدود امبراطورية خوارزم الاسلامية ـ وكانت تمتد من العراق الى حدود الصين ، ومن شمال بحر قزوين الى الخليج الفارسى ـ وكانت الجيرة الجديدة تؤرق القوم هنا حيث الدولة الراقدة فى العز والمجـد القديمين ، وهناك حيث الدولة الفتيـة القـائمة على السيوف والحـراب . وكان لا مندوحة من الحرب .

وبدأ الاحتكاك بقوافل التجار يبعث بها جنكيز الى بلاد غريمه تذهب بالبضائع والأفكار وتعود بالمـال والأخبار . وتنبه أصحاب الامر فى خوارزم الى ذلك الخطـر الزاحف فاخـذوا فى الاستعداد ويبدو انهم لم يقدروا الموقف على حقيقته ولم يحصلوا من المعلومات ما يجعلهم على حذر وحيطة ولهذا جانبتهم الحكمة وعاملوا رسل المغول باحتقار ، ووقعوا فى المحظور ..

وجمع جنكيزخان رجاله وأنبأهم بالصيد الجديد !

أتسمعون يا رجالى الشجعان ، لقد قتل المسلمون رسولى وقضوا على اربعمائة وخمسين من رجاله ، وهم من خيرة توادى وجنودى . فهل هذا يحتمل ؟

فصاح المغول من اسفل الجبل :

سر بنا اليهم ايها الخاقان . سنحرق مدنهم ونذبحهم جميعا ..

وهكذا كان يفهمهم ويفهمونه .

هو يشير اليهم بما يصادف هوى من نفوسهم : الغزو والسلب.

وهم يتبعونه كظله . لأنه قائد شديد البأس عظيم الحكمة ، قادر على احراز النصر .

والجنود ـ كل الجنود ـ كما يقول المارشال مونتجمرى : يحبون القائد الذى ينتصر .

وتجمع المراجع المختلفة على أن طريق جنكيز كان محفوفا بالمكاره مليئا بالأخطار بسبب وعورة المسالك وقسوة البرد وندرة الأطعمة ، مما لم يسبق لفاتح أن واجهه ، وما لم يكن لغير المغول أن يتحمله ، وبعد ذلك كله كان على جنكيزخان أن يواجه أربعة أمثال قوته ، فى أرض عدوه .

وانتصر جنكيزخان ، وفر رؤساء خصومه ، جلالة السلطان علاء الدين محمد وولده القائد الشجاع جلال الدين ، ودالت دولة خوارزم العظمى . وتربع جنكيزخان على العرش الذهبى .

ووصف أحدهم هذه الحملة الفظيعة بقوله عن المغول :

« جاءوا فخربوا وحرقوا وقتلوا ونهبوا ... ثم مضوا » .

وهكذا استمرت قوات جنكيزخان تفعل كلما تجولت شرقا وغربا .

وسأل جنكيز رجلا من أهل الحكمة :

هل يبقى اسمى خالدا بعد موتى ؟

فأجابه الحكيم :

يبقى الاسم ما بقى سكان .

عباقرة الحرب

لم يكن بالمستطاع ـ فى مثل هذا الحيز المحدود ، وفى حديث عن قادة عديدين ـ ان نكتب بالتفصيل عن حياة جنكيزخان وحروبه ، فالقصد هو بحث عوامل التفوق فى القيادة وأسباب النجاح الحربى التى حققت المجد والخلود لذلك المحارب البدائى الأمى ، والعجيب أن اسمه قد اقترن بالوحشية والفظاعة واعتبر رمزا للتقتيل والتدمير بلا حساب ، ولكن هذه « السمعة » لا يمكن ولا يجب أن تخفى مزايا هذا القائد العبقرى وما كان له من براعة فى وضع الخطط وعزيمة فى تنفيذها فضلا عما أوتى من حكمة وبعد نظر كرجل حرب وسياسة وحكم .

وقد كتب عنه الجنرال الأمريكى ـ الذى اشتهر بقاهر اليابان ـ دوجلاس مكارثر ، فقال قولا قد يندهش له القراء وخاصة ممن انطبع فى ذهنهم ما اشتهر عن جنكيز خان وقواته البدائية الهمجية .

« لو محيت جميع اخبار الحروب من صفحات التاريخ ما عدا أخبار جنكيزخان لبقى لرجال الحرب معين لا ينضب من أنفس المعلومات عن تعبئة الجيوش وتنظيمها . ومهما تغيرت أسلحة القتال فلا بد من الرجوع الى الماضى ومطالعة التاريخ . ليحذق الجندى فنون الحرب ومبادئها الأساسية التى لا تتغير . ولن تجدها ممثلة فى غير سيرة امبراطور المغول منذ سبعمائة عام » .

ويرى الكاتب الصينى ف يان ـ حامل جائزة ستالين للسلم ـ أن من الخطأ الشائع ان يقال ان جيش المغول كان جيشا من الهمج ، يهاجم كما تهاجم قطعان الذئاب ، بلا نظام ، والحق أن جيشهم كان منظما تنظيما يفوق غيره من الجيوش ، وكانت الخطط الحربية ترسم بحذق وذكاء فليست أمية جنكيزخان ورجاله بمانعة انه كان عبقريا فى الحرب .. ان رجاله كانوا موهوبين فى القيادة وادارة الجيوش ، وقد أعانتهم على تحقيق التفوق العسكرى فى ذلك الحين طبيعة الطاعة والجلد والشجاعة ، الى تخاذل أعدائهم وانحلال الملوك من حولهم لأنهم من أعقاب السلالات التى أفسدها الترف والغرور وجو الملق والضعف الذى انغمسوا فيه .

التنظيم والتدريب .. والضبط والربط

لقد خلق جنكيزخان جيشا من العدم . لقد وجد نفسه يوما بلا رجال ، اذ انفض عنه الجميع عند مصرع أبيه . فراح يجاهد وحده لحماية أسرته ثم بدأ يناضل لاشباع ما فى نفسه من اقدام وطموح فاشتهر أمر مغامراته وأعجب الرجال بشجاعته ، فأخذوا ينضمون اليه . وهو يقرب اليه كل قوى أمين ، حتى خرج بجيش صغير الى مغامرات أكثر اتساعا وأبعد أغراضا .

واخذ جيشه يتزايد حتى أصبح أعظم قوة فى زمانه بفضل تنظيمه وتدريبه وخططه ووسائل مواصلاته وتموينه ، ففتح به ذلك العالم مستخدما ثلاثة مفاتيح :

التنظيم ـ التدريب ـ الشدة .

وقد عرف أن جنكيزخان قد نظم قواته فى جماعات وسرايا وكتائب وفرق وجعل كل محارب يعرف مكانه الذى وضعته فيه القيادة فيبدى فيه خير ما عنده من اندفاع وبسالة ، وقال فى ذلك :

« تستمر قواعد تنظيم جنود الجيش الى عشرات ومئات والوف وعشرات الالوف كما هى نافذة المفعول حيث ان هذه القواعد تساعد على تعبئة الجيش فى فترة وجيزة » .

وعرف أن جنكيزخان كان يدرب قواته – فى فترات الفراغ من الحرب – فيذهب بها الى ساحات بعيدة حيث تتلقى فنون الهجوم وأساليب التعاون ووسائل الاحداق بالعدو ، ويمرنهم على القتال فى السهول والجبال والوديان والأنهار . فهو لم يترك قواته تنعم بالراحة التى تذهب بالعزيمة وتضيع الحماسة وانما كان يرى ضرورة التدريب الجيد لكى يصل الى النصر المؤزر .

كما عرف أنه كان شديد العناية بالضبط والربط ، فهو يكافىء بشجاعة رجاله الأمناء ويقضى بفظاعة على الخونة والضعاف ، كان لا يقبل اى هوادة فى معاملة رجاله ، وكانت هذه الشدة مصدر قوته ، كما كانت مصدر شهرته ، فتزعزعت لها قلوب الأعداء قبل اللقاء وسقطت الحصون والقلاع من غير دفاع .

وقد وضع جنكيزخان أوامر مستديمة لقواته فى تلك الأحكام المجمعة المسماة « بالياسة » فحدد فيها نظام التعبئة . وتنظيم الجيش . ومسائل التموين والاعاشة والجرائم والعقوبات ، والعمل فى اراضى العدو ، والتصرف فى الغنائم . وهكذا حقق من تلقاء نفسه ، وبوحى تفكيره الخاص ، جماع النظم العسكرية الحديثة قبل سبعمائة عام .

وقد جاء فى وصف احدهم لجيش جنكيزخان :

انهم يطعمون لحم البشر ولهم جماجم من نحاس وأسنان من صخر وقلوب من فولاذ ، تقذف أفواههم الحمم ، وتشرب خيلهم الندى ، لهم اجنحة كالطير ، وتتغذى خلال المعركة على لحم البشر .

القائد العظيم

كان لجنكيز خان جيش هائل ، وقادة من الصف الأول :

سابوتى الحكيم ، وموهولى المحنك ، وشيبه نويون النـارى المندفع ، وبورشو الأمين ولكل منهم فى ساحات القتـال صفحات مجد وبطولة ، حتى لقد وضع المؤرخ الحـربى ليدل هارت اسـم سابوتى أعظم القادة فى التاريخ كله .

وكان جنكيز يشجع قواده ويفخر بهم ، ويجزل لهم فى العطاء . ويوليهم رعايته وحسن توجيهه ، فكان اذا بعث أحدهم فى غزوة بصره بما سوف يلقاه فى طريقه ونبهه الى ما يجب عمله فى مواجهة كل موقف ، فقال لسابوتاى :

« انك سوف تمر حتما فى طريقك الى هدفك بين ممرات الجبال الشاهقة وتعبر الأنهار الكبيرة ، ولما كانت الشقة طويلة فاقتصد فى خيالتك ، ووفر من مؤونتك ، انك سوف تصادف خيرا كثيرا فى طريقك فلا تأذن لجنودك بالصيد الا بقصد الاستعاضة عما نقص من مؤونتك حتى لا تصبح خيولك مجهدة قبل أن تلقى العـدو . وتأكد أن الشكائم والأعنة لا تؤذى أفواه الخيل . واذا تجرأ احـد على مخالفتك فابعث به الى أن كنت أعرفه وعاقبه بنفسك ان كنت لا أعرفه » .

وقد اطرى جنكيز قائده الداهية سابوتى « المعصوم من الخطأ » ونوه بمعاركه المظفرة فى ايران وجورجيا والقوقاز وجنوب روسيا وبلغاريا بين صيف ١٢٢٠ وشتاء ١٢٢٢ وكان يقول :

« لقد كان سابوتاى ينـام مدرعا وقد فاز فى معارك داميـة ، وخاطر بحياته من اجل بيتنا ، ونحن عنه راضون » .

أما رأى جنكيزخان فى القائد الجيد فهو :

القائد الذى يقطع المسافات الطوال بلا تعب ولا جوع ولا عطش ، ولا يعانى رجاله التعب والجوع والعطش ، فالقائد الناجح هو الذى يضع هذه المشاكل ويجعل مدى احتمال الطاقة البشرية نصب عينيه حتى يكون بوسعه ادراك متاعب جنده كما انه يريح جنده وخيله كلما وجد الى ذلك سبيلا .

مبادىء الحرب

المحافظة على الغرض ، الحشد ، الاقتصاد فى القوة ، الوقاية ، التعاون ، المفاجأة ، خفة الحركة ، والقتال الهجومى .. لقد عمل بها جميعا جنكيزخان ، قبل أن تجمع هكذا ويعرفها العالم المتمدين باسم مبادىء الحرب .

كان يحدد هدفه بدقة ولا يجعل شخصا يحوله عنه ، وكانت مطامعه الكبرى لا تجعله ينزلق الى غرض لم يقدره جيدا ، فاذا اتجه الى قتال أعد له عدته ودرس تفاصيله ووضع خطة محكمة ، ومضى اليه مهما لاقى فى طريقه من صعاب .

ولم يكن جيش جنكيز أكثر عددا من خصومه ، بل كثيرا ما حارب عدوا يبلغ ضعفى أو أربع أمثال جيشه ، ولكنه فى الساعة والمكان الحاسمين يكون قد حشد أعظم قوة لتوجيه الضربة الأخيرة .

وكان يدفع الطلائع فى مقدمة جيشه تتقدمها الكشافة حتى يؤمن القوة الأساسية ويمنع عنها المفاجأة . ففى عملياته الدفاعية القليلة كان يترك قوات ساترة تتلقى الصدمة الأولى وتظل تناوش العدو حتى تستطيع القوة الأساسية أن تستعد وتنفذ خطتها . وفى تقدمه نحو مواقع العدو كان يبعث بالمقدمة تسبر الفور وتحصل على المعلومات حتى تمهد للهجوم الكبير .

وكان ينظم جيشه بين مقدمة ومؤخرة وقلب واجنحة ويحرك الجميع فى خطة واحدة متعاونة تتقدم المجموعة فى حماية الأخرى ، وتناور الواحدة لتحجب انظار العدو عن هجوم الوحدة الأخرى .

أما المفاجأة فكانت سلاحه المفضل ، كان يبعث جواسيسه فى مناطق العدو يدرسون أحوال الأهالى ويسبرون غور العدو ، وهم يمثلون التجار ويجذبون اليهم عملاء ذوى مناصب تبعدهم عن الشبهات ، فاستخدم الجاسوسية على أوسع نطاق ، وانشأ الطابور الخامس قبل أن يفكر فيه الجنرال فرانكو بمئات السنين.

ويظل دولاب المخابرات يعمل حتى يصل الى جميع المعلومات اللازمة ثم يفاجىء العدو من حيث لا يحتسب فيقضى فيه القضاء المبرم بفعل المفاجأة وقوة الضربة .

ومن اساليبه المثلى فى انتزاع المعلومات من مصادرها واستقصاء الأخبار على حقيقتها انه كان يبعث بعض رجاله يدعون أنهم هاربين من ظلمه وعسفه مستجيرين برحمة خصومه ، وهناك يواصلون جمع المعلومات والأخبار ، ويدلون فى الوقت نفسه بمعلومات خاطئة مضللة فيقول لرجله :

« لقد احسنت صنيعا أن غررت بالعدو ، وأفهمته ان جيشنا ليس كفؤا لجيشه » .

جواسيس جنكيز خان .. فى كل مكان

كانت المفاجأة نصف المعركة وهذا يوضح اسباب اهتمام القائد المغولى الفطن بالجاسوسية والطابور الخامس والكشافة فكان الفارس من فرسانه يقطع ٥٠٠ ميل فى نهار وليلة . وكانت بعض الأخبار تصله بانتظام وسرعة وسرية مطلقة عبر عشرة آلاف ميل .

كما كان جنكيز معنيا بالمعنويات ، فكان يبث الحماسة فى جنده ويبعث الهزيمة فى خصومه فيقوض روحهم المعنوية وقد بلغ فى ذلك نجاحا لامعا حتى قيل ان جنكيزخان اذا اصدر امرا على حدود الصين فان أسعار السمك تنخفض فى انجلترا ، ويباع الخمسون منها بشلن واحد ..!؟

والذى يقدر أثر المفاجأة لابد وانه يعمل لوقاية قواته منها فكان جنكيز فطنا اذ منع حصول العدو على اية معلومات الا اذا كانت مضللة ، وكان يقضى قضاء مبرما فى الجواسيس والخونة ودعاة التردد والهزيمة ، فاذا تحرك لقتال أخفى كل شىء عن تحركاته حتى لا يعرف اتجاهه وخطته غير المقربين الموثوق باخلاصهم وكان خلال حملاته يفضل الطريق الأكثر صعوبة ، ويختار السير فى الشمس المحرقة أو الليل البهيم كما كان يحرم اقامة الخيام ، فاذا كانت وقفة للراحة جعل نوم الفارس الى جانب حصانه وعنانه فى يده تحوطا من المفاجأة وتحفزا لمتابعة السير .

٣ : ١

وكان جنكيزخان لا يبلغ مبلغ عدوه فى الافراد أو الأسلحة ؟ وانما كان يبزه بجنود أقوى عزيمة وأصلب عودا ، حتى قيل أنه لو بعث عشرة من رجاله لمواجهة ألف رجل لانطلقوا كالليوث الجائعة ليظفروا بأعدائهم .. لأن هذه هى ارادة الخاقان الأعظم .

وقد كان يحدث رجاله بنتيجة المعركة قبل وقوعها ، مما يقوى معنوياتهم ويزيدهم ثقة فى عاهلهم وفى انفسهم ، فيقول :

« ان امامنا افراحا كثيرة نحييها فى بلاد خوارزم ، وانى لأرى رؤى العين ديارهم وقد انقلبت حقولا ترعى فيها خيلنا ، وارى رجالهم يفرون من رجالنا رعبا وقد قتلهم الخوف قبل أن يقضى فيهم السيف .. » .

وكان جنكيز خان يعيش وسط جنوده ، فاذا ازفت ساعة الحرج وجد بين ظهرانيهم يقاسي مثلما يقاسون ، فيجعلهم ذلك اكثر اندفاعاواستبسالا ، فكانوا لا يعرفون الراحة ولا يطيقونها ، بل يستمرون فى تقدمهم عدوا بتلك الخطوات السريعة المتلاحقة المسماة « خطوات الذئب » .

وقد حدث يوما أن حاوره بعض خصومه فى مفاوضات التسليم ، بقصد ايهامه ان حصونهم مانعتهم من امره : فقال :

« انما تقاس الأسوار ومناعتها بقوة قلوب المدافعين عنها ، ومقدار شجاعتهم ، فلا منعة للطوب اذا وهنت القلوب » .

وبعد ذلك بمئات السنين ، قال نابليون . ان نسبه القوه المعنوية الى القوة المادية ٣ : ١ .

الحرب هى الهجوم

ان تاريخ حروب جنكيزخان هو دراسة تفصيلية لعدة عمليات هجوميه ، فاذا استثنينا موقفين ، قام اولهما بعملية انسحاب ذات خداع وتمويه ، وفى ثانيهما بدفاع مؤقت أعقبه الهجوم فان عملياته كانت تعرضية ، وكان يرى أن الغلبة بنت الهجوم ، وان الافطار بالعدو خير من الفداء به .

وقد اشتهرت عملياته بالهجوم العنيف الذى يجتاح كل شىء ، على غرار الحرب الخاطفة الحديثة ، ومن ذلك هجومه على بخارى الذى جاء وصفه فى بعض المراجع : « ان القوم خرجوا ليروا ذلك العدو الداهم الذى فاجاهم فى عقر دارهم فراوا منظرا عجبا ... رأوا خيلا قصيرة القوائم سهلة الحركة فى عصبية ظاهرة حتى لتشبه فى عدوها الخنازير البرية اذا طاردتها كلاب الصيد .. انهم جند يأجوج ومأجوج .

و رع ما امتلأت شوارع المدينة بالوان من خيل التتار ، وفى نظام محكم جعلت طوابيرهم تجوب المدينة وتتجه كتائب منها لاحتلال المعالم المهمة ، فلما تم للمغول احتلال جميع مرافق المدينة دخلها فيلق جميع خيوله بيضاء كالثلج ، وفى وسط هذه الفرقة المنتقاة ظهر للناس عاهل الشرق كأنه عامود متحرك من نار جهنم » .

رجل سيف .. ورجل حكم

والى جانب انه كان من رجال السيف المشهورين الخالدين فى جميع الأزمان ، فان جنكيزخان كان حاكما سياسيا فذا قاد شعبا ضخما وحكم املاكا شاسعة وساس امور أقوام مختلفة طبائعهم وعادتهم ، فاذا كان كقائد عظيم نجح فى تنظيم جيشه وتدريبه ، فانه كحاكم فطن قد بلغ أعظم مراتب التوفيق فيما صنعه لشعوبه من نظم وقوانين وشرائع .

فهذا الجندى الأمى الذى أنشأ جيشا رهيبا ثم أقام امبراطورية عظمى كان مفكرا حصيفا وحاكما بصيرا ، وقد ترك أثرا خالدا من النظم والأحكام ، وهو المسمى « الياسة » الذى لم يترك ناحية من نواحى الجندية أو النواحى السياسية لم يضع لها نظما دقيقة وأحكاما منصفة .

وقد بدأت مجموعة قوانين الياسة بقوله : الله واحد خالق السموات والأرض ، مانح الخير والشر ، والغنى والفقر ، والعسير واليسير ، واهب الحياة والموت يفعل ما يشاء .

وفى الياسة كثير من الأحكام التى تصلح لزمننا هذا وفيها توجيهات وارشادات ، ونظم تصلح لأرقى الشعوب وأعظم الأمم .

اما بعد .. فهل كان جنكيزخان جنديا همجيا افاقا .. أم كان قائدا عظيما وامبراطورا أعظم ؟

القائد الإنجليزى :

دوق مارلبورو



« ان مارلبورو أعظم قائد انجبته انجلترا ، وقد كان يملك الصفات التى تجعله اكبر القـادة فى جميع العصور »

مارشال ويفل

كان جون تشرشل ـ المشهور باسم دوق مارلبورو ـ احد القادة البريطانيين الكبار بل كان قائدا عالميا لا يقف فى صفه غير افراد قلائل فى جميع الأزمان ، ويعتبره المارشال ويفل « اعظم قائد فى التاريخ » .

قال عنه مؤلف كتاب « العظماء المائة » انه لم يهاجم حصنا الا فتحه ، ولم يخض معركة الا كسبها ، ولم يبلغ مبلغ فطانته الحربية غير شجاعته الهادئة وعمق تفهمه لأحداث عصره .

كان جنديا وسياسيا ، ومثلما استطاع توجيه جنوده فى حومة الوغى فخورين بقيادته استطاع أن يعامل حلفاءه بفطانة وكياسة فاستظلوا بآرائه وسياسته ، وأنه كان عظيما بين بنى وطنه وفى بيته ايضا ، فكان أبا وزوجا ، وصديقا يخلب الألباب .. وكان يعامل جنوده بتشجيع واعجاب فائقين ، وكان ـ بعد المعركة ـ يذهب يتفقد الجرحى من رجاله ومن أعدائه ، ويشملهم برعاية وعطف سابغين .

وهكذا كان نموذجا للقائد الأصيل والانسان النبيل .

وكان فولتير يعجب بشجاعته الهادئة وسط الأخطار الساحقة وهدوئه النفسانى فى غمرة الويلات .

جيش الملكة

فى صبيحة ٢١ اغسطس ١٧٠٤ كان أحد الفرسان يجتاز شوارع لندن على صهوة جواده لم ينزل عنه منذ ايام ، اذ كان قادما من ميدان القتال ميمما شطر قصر سان جيمس وما أن بلغه حتى ترجل وصعد سلالم القصر قفزا لكى يضع فى يد « سارة تشرشل » دوقة مارلبورو الرسالة الآتية :

(١٣ اغسطس سنة ١٧٠٤)

ليس لدى وقت لأقول لك أكثر من أن ترفعى تحيـاتى للملكة وتحيطينها بأن جيشها أحرز نصرا مجيدا .. ان « المسيو تالار » واثنين آخـرين من الجنرالات فى يدى الآن . وأنا بسبيل صيـد الآخرين .

ان حامل هـذه الرسـالة ، ياورى كولونيل بارك سـيبلغ الملـكة ما جـرى .. وسأوافيها بعد يوم أو يومين بأكثر من ذلك واهم ..

(مارلبورو)

وكانت هذه السـطور القليلة تحمـل الى انجلترا خبر اعظم انتصار احرزته قواتها منذ القرون الوسطى .

كما كانت تحمـل الى العـالم أمر جندى كبير بلغ اعلى ذرى العبقرية العسكرية ، فان معركة « بلانهيم » تعتبر من فواصل معارك التاريخ ، وقد دوت صعقاتها ــ على حد قول « اليس » ــ فى انحاء « أوروبا » وهدمت صرح القوة الذى كان لويس الرابع عشر يتمتع فيه .

الجنتلمان الانجليزى

ولد جون تشرشل فى مايو سنة ١٦٥٠ ودرس فى سان بول وبدأ اول عهده بالجندية فى « طنجة » ولكن شهرته العسكرية قد سبقتها صفاته المحبوبة حتى كان الفرنسيون يطلقون عليه اسم « الجنتلمان الانجليزى » وقد التحق بحرس القصر وخدم فى ميدان القتال وهو برتبة اليوزباشى ، وكان ذلك تحت قيادة دوق مونموث فى فرنسا ، وبزغ نجمه فى وقعـة فتح مدينة تميجين وفى حصار ماستريخت

سنة ١٦٧٣ وكانت شجاعته موضع ثناء لويس الرابع عشر ، وقد قدمه دوق مونموث الى الملك شارل الثانى بقوله : « ان حياتى مدينة لشجاعته » .

زوجة من ذهب

وعند عودته من الميدان الى الوطن والقصر وجد ضيفا جديدا دفعته اليه المقادير الآنسة سار جننجز ، فتحابا وتزوجا ، فلما اشرق نجمه عرف انها كانت خير دافع له الى العلا ، كان جمالها ملهما وخلقها هاديا حتى لقد وصفها الروائيون بأنها « قطعة من الذهب تشرق عليه من غبار المعارك وضباب الحرب » وكان فى أشق ادوار القتال يكتب اليها كلمات الحب والهيام ، فيقول : سأنتصر حالا لانى فى شوق الى نظرة منك .

وقد وصل تشرشل الى رتبة القائمقام وصار ياورا الملك جيمس الثانى ، بينما وصلت زوجته الى وظيفة الوصيفة فى القصر ، وسيطر كل منهما على جهة اختصاصه واستمر نفوذه يقوى فى دوائر الجيش ، ونفوذ زوجته فى دوائر القصر ، ورقى فى عام ١٦٨٨ الى رتبة الجنرال وعين فى عام ١٧٠٢ قائدا عاما للقوات المتحالفة ضد لويس الرابع عشر ملك فرنسا أو « الملك الشمس » الذى كان قد انتزع ميزان القوة فى أوروبا . وأعلن انه هو الدولة ، وانه لا توجد حدود بين فرنسا واسبانيا . فجبال البرانس لم تعد ذات موضوع .

فرنسا وبريطانيا

كانت معركة « بلنهايم » من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، فقد كانت معركة نضال من اجل المبادىء ، ومن اجل التوازن الدولى ، ثم

ان نتائجها كانت بالغة الأثر فى تغيير الأوضـاع اذ حسرت النفوذ الفرنسى عن دول اوروبا .

كان لويس الرابع عشر قد بلغ بفرنسا غاية القوة فوجد رقعتها صغيرة بالنسبة له ، وهو الذى كان يقول : « انا الدولة » فمد بصره الى انحاء اوربا يتطلب السيطرة عليها ، وكانت فرنسا اقوى الدول ماليا وحربيا واداريا ومعنويا ، وساعد على تحقيق مطامعه ان دول اوربا كانت تعانى مشكلات عديدة ، فأسبانيا كانت فى طور تقهقر بعد حربها مع العرب وعلى اثر ما تسلط على اداتها من عوامل الفساد والتعصب ، والمانيا كانت تتنازعها عوامل الانقسام والضعف من جراء الحروب العـديدة التى خاضتها ، وانجلترا مغلولة اليد بمشاكلها العديدة وخاصة بعد ثورة الشعب على الملك شارل الاول عام ١٦٤٨ وحكم كرمويل الذى كان لويس يخاطبه بنداء « سيدى الوالد » ، ثم ضياع النظام الجمهورى وعودة النظام الملكى .

ولمـا انتهى عرش انجلترا الى وليم اورانج وزوجته « حنا » بدات الحال تستقر والمشاكل تحل . واستدارت بريطانيا تنظر الى اوربا وتنافس فرنسا الحساب .

وكانت انجلترا قـد خلعت ملكها جيمس الثـانى ودعت وليم اورانج زوج ابنته لتولى العرش ، فهرب جيمس الى فرنسا ولقى تأييدا من لويس الرابع عشر ، وكان ذلك الحادث شرارة العداء بين انجلترا وفرنسا .

وحدث بعد ذلك ان توفى ملك اسبانيا وكان قد اوصى بأملاك التاج الأسبانى لفليب دوق انجو ـ حفيد أخته ، زوجة لويس الرابع عشر ـ فذهب الملك الجديد الى عاصـمة ملكه مدريد . وكان فى وداعه لويس الذى قال : « لا وجود بعد اليوم لجبال البرانس » ، اى ان فرنسا واسبانيا صارا بلدا واحدا .

وقد اثار هذا الوضع ثائرة ليوبولد امبراطور المانيا فتحالف مع انجلترا ضـد فرنسا وانضمت معهما هولنـدا ثم دنمرك .. وكان مارلبورو الضمان الوحيد لفوز المحالفة ، فعرضت الملكة على الحلفاء تعيينه قائدا عاما فوافقوا واصبح مارلبورو مبعوث العنـاية لقهر لويس الرابع عشر .

سر تقدم الانجليز

اعلنت الحرب بين الحلفـاء وفرنسا يوم ٤ مايو سنة ١٧٠٣ ودارت رحاها فى الفلاندر واقاليم الرين العليـا وشمال ايطاليا ، واستطاعت جيوش فرنسا ان تحمل على قوات المانيا حملة شعواء قطعت اوصالها ثم احدقت بجيوش الحلفـاء فى اعالى الرين . فى الوقت الذى ثارت فيه هنجاريا على المانيـا ، فسـاءت الأمور فى معسكر الحلفاء الى حد بعيد .

واصـدر لويس الرابع عشر اوامر حربية ـ قيل ان نابليون بونابرت لم يكن يجرؤ على اصدار مثيلاتها ـ وكانت تقضى بالتزام قوات من الجيش الفرنسى الدفاع فى هولندا ، مستندة الى حصونها المنيعة ، بينما تشغل قوات أخرى الخط بين هولندا وبلغاريا .. هذا على ان تتقدم القوات الفرنسية الرئيسية من ايطاليا الى النمسا بطريق اللورين وتزحف على فينا ، وبذلك يضطر امبراطور المانيا الى التسليم .

هذه هى الخطة الباهرة التى كانت تتضمن القضاء على الحلفاء ، وكان مارلبورو كالشهاب السـاطع الذى انقض على تلك الخطة فدمرها .. فقد فطن الى اهداف عدوه الماكر وادرك ما فى خططه من دقة وتمويه ، وقدر ان المعركة الفاصلة لن تكون فى ارض فرنسا .. بل فى النمسا ، فكان عليه ان يقابل تلك الخطة البارعة باخرى اروع

منها فيضيع على الملك الشمس فرصته ويدفع بشمسه الى المغيب.

ولم تكن الخطة الحربية وحدها هى ما يشغل مارلبورو بل كان اهم منها المحافظة على معنويات الحلفاء وروابطهم . وهى مهمة غير يسيرة وخاصة وهم مجموعة من الضعاف ازاء قوة متفوقة . ولهذا شهد له خصمه بولنيبروك ، فقال : « ان مارلبورو احرز نفوذا اقوى من نفوذ التاج وذلك عن جدارة ومقدرة » فانه بفضله بقيت المحالفة وتوثقت وتغلبت على خصمها العنيد .. ان مارلبورو اعظم القادة الذين انجبتهم انجلترا » .

وبدأ النزال ، وكان مارلبورو هادىء الروع رابط الجاش ، ولو ثارت البراكين ، وساعدته هذه الصفات التى يعتبرها فولتير سر تفوق الانجليز ومصدر قوة انجلترا وسيادتها فى الدنيا .

المعركة الاستراتيجية

نظر مارلبورو فى خريطة أوروبا وادرك خطر المسئولية التى يحملها ، فاذا هو لم يضرب ضربته فى الوقت والمكان المناسبين فسوف يكون مآل خريطة اوروبا أن تطوى فى درج مكتب لويس الرابع عشر ... عدة سنوات .

وكان الفرنسيون ينتظرون أن يشتبك الانجليز معهم فى الفلاندر ، ولكن القوات المتحالفة تحركت تحت قيادة مارلبورو بعيدا عن تلك الساحة ، وانطلقت فى وادى الدانوب والقيادة الفرنسية فى حيرة من امر تلك التحركات ، ثم عبر مارلبورو الدانوب وانضم الى الجيش الالمانى تجاه القوات الفرنسية والبافارية المقيمة بين بلانهيم ولوتزنجين .

فهو لم يقبل المعركة التى استعد لها لويس ، بل ذهب الى المعركة التى لم يستعد لها ، وهنا كانت المفاجأة .

ويقول المارشال ويفل أن براعة مارلبورو فى تلك العملية ليست بذات نظير ، فاذا كان هناك من يدرك كيف كسب معركة بلانهيم فان كثيرين يقفون مشدوهين امام التدابير الادارية التى جعلت السير الى بلانهيم ممكنا ... فقد كانت معركة خطط وتقديرات استراتيجية وتكتيك وشئون ادارية .. وقد وفق فيها جميعا .

لقد احس مارلبورو بالخطر فى فينا وقرر الاسراع لمساعدة البرنس اوجين واعلن انه سيهاجم فرنسا على نهر الموزل ، فلما وصل الى كوبنزا استدار فجأة واتجه الى مينز ثم تحرك جنوبا بشرق الى الدانوب وواجه القوات الفرنسية المتحفزة تحت قيادة المارشال تيلار .

بلانهيم الفاصلة

كان ميدان المعركة على ضفتى نهر بنيال بين لوتزنجين وبلانهيم وكان للجيش الفرنسى التفوق العددى فى المشاة ، (٦٠ الف مقابل ٥٤ الف) وفى المدفعية (٦٠ مقابل ٥٢) ووقف المارشال تيلار على راس الجيش الفرنسى فى جبهة بلانهيم والمارشال مرسين فى جبهة لوتزنجين وبينهما قوات بقيادة برنس مكسيمان . وفى الجهة المقابلة كان أوجين يواجين مرسين ، ومارلبورو يواجه تيلار مكسيماليان .

بدات المعركة يوم ١٣ اغسطس سنة ١٧٠٤ بهجوم مارلورو فى قلب القوات الفرنسية ففصلها ، فاضطر البفاريون الى الانسحاب غربا فاسرع خلفهم البرنس اوجين واستمر فى ابعادهم وبذلك ضاع الأمل فى الضغط على المانيا . وتم انقاذ فينا .

وقد اختار مارلبورو اضعف نقطة من خط العدو وقصد ايضا فصل القوات فلما نجح فى الاختراق دار بالجناحين فسحقهما بعد معارك هائلة ووقع كثير من القوات الفرنسية فى الأسر ودخل الحلفاء

الم ، ولاندو ، وترابياح . وابدى مارلبورو فى هذه المعركة من الشجاعة والفطانة ما احله فى مصاف كبار القادة وجعلت منه بلانهيم بطلا شهيرا .

هذا هو الجندى الدبلوماسى الذى يعتبره المارشال ويفل اعظم قائد فى التاريخ .

القائد الأمريكى :

چورچ وشنطن



الاول فى الحرب ـ الاول فى السلم
والاول فى قلــوب مواطنيــــــه

يعتبر الامريكيون جورج وشنطن ابا لهم فهـو قائد الجيش الامريكى الى النصر فى حرب الاستقلال وهو اول رئيس للولايات المتحدة ارسى اساس استقلالها ووحدتهـا ووضع دعائم المركز العظيم الذى احرزته الولايات المتحدة فى العالم .

كان وشنطن رجل حرب وسياسـة ، يقرن الى مواهبـه العسكرية خصائص السياسى الحصيف ، وقد نجح فى المعركتين معا ، فاعتبره العسكريون اعظم قواد امريكا الذين قادوا بلادهم الى الفوز فى معمعان الحرب . واعتبره السياسيون احـد ثلاثة كانوا اعظم قطان البيت الأبيض .

ولعل اقيم ما فى وشنطن انه كجندى لم يختط طريق الحرب للشهرة او لشهوة الغزو وانما كانت دوافعه دائما « الدفاع عن الوطن » وانه كسياسى لم يعمل لنفسه وانما عمل لوطنه . فلما استقرت الأمور وانتظمت الأوضاع السياسية رفض الموافقة على تجديد انتخابه رئيسا للولايات المتحدة للمرة الثالثة .

لقد كان جورج وشنطن مزارعا ناجحا وكان همه الأول تحسين انتاج مزارعه وتنمية ثمارها ، وكان قبل ان يولى الزراعة كل اهتمامه ، جنديا ومساحا على الحدود ولكن كان محبا للسـلم محافظا شريفا مستقيما ثم صار قائد الجيش الأمريكى مدى سبع سنوات بغير اجر كما كان الركن القوى الذى اعتمد عليه الشعب حين حلت به الكوارث واحاط به اعداء ناقمون .

الى الحرب

وقد نفض يده من الزراعة على كره منه عندما دوى نفير الحرب ونهض من فوره يحارب بعزيمة صادقة ويشارك جنودا مهلهلى الثياب

حفاة الاقدام فيما عانوه من البرد والجوع والويلات فاذا انتهت المعركة عاد الى المزرعة ، وهكذا كانت افكاره فى الحــرب ، وبالمثل كانت افكاره فى السياسة ، فعندما دعاه الواجب أن يذهب الى البيت الابيض صدع بالرغبة وادى مهمته خير اداء فحقق لامريكا اعظمَ نجاح اثناء رياسته للجمهورية الناشئة وبانتهاء هذه المهمة العظيمة رفض تجديد انتخابه وعاد الى مزارعه ليحيا فيها حياة رجل السلام .

ومثلما فعل فى فاتحة حياته حين ترك عمله الريفى الى ساحة القتال ، فعل فى آخر ايامه ، وبعد ولايته لرياسة الجمهورية مرتين ، فلم يقبل ان يظل قاعدا بين زهور المجد وذكريات البطولة حين اضطربت الامور بين فرنسا والولايات المتحــدة عام ١٧٩٨ وانما نهض ليتولى قيادة الجيش حتى مرت الأزمة بسلام ، وهكذا كان جورج وشنطن ـ كما اعلن مجلس الكونجرس ـ الأول فى الحرب ، والأول فى السلم . والأول فى قلوب مواطنيه .

ولقد احرز وشنطن هذه المكانة فى قلوب مواطنيه لانه كان امينا فى خدمتهم ، كما انه كسب مكانته بين جنوده لانه كان يحارب معهم ويقف بين صفوفهم ويتقدم الى المعمعان مثلما كانوا يعملون ... ولهذا ظلت سيرته عاطرة واسمه لامعا رغم مرور عشرات الأعوام ، ولقد ذهب بعض المؤرخين الى القول بان جورج وشنطن كان يمثل نوعا جديدا من العظمة الانسانية ، وانه كان نسيج وحده .

وقد عرف العالم قبل جورج وشنطن قوادا عظاما كالاسكندر وفردريك وغيرهما ولكن اكثر القواد العظام كان ينشد الحــرب للغزو ويسعى للفوز وعلو الصيت ، اما وشنطن فلم يحارب قط الا دفاعا عن وطنه ، فاذا تم له ما اراد عاد الى مزرعته تحت ظلال السلم الذى احبه دائما .

لقد عرف العالم سياسيين بارعين وحكاما قديرين نجحوا بالسياسة والدهاء فقوضوا العروش وتحكموا فى مصائر الشعوب اما وشنطن فلم يسع الى الحكم ولم يهدم احدا ، وانما دعته امريكا الى البيت الأبيض وهو زاهد فى ذلك ، فلما قام بواجبه وخدم امته اجل الخدمات رفض أن يظل رئيسا الى الابد . وغادر البيت الأبيض الى مزرعته راضيا مستريح الخاطر .

فهو رجل عاش لوطنه مزارعا وقائدا ورئيسا للولايات المتحدة ، وكان فى جميع هذه الحيوات هو هو ، فى رضاء الضمير واداء الواجب وخدمة البلاد .

وكانت شخصيته بسيطة غير معقدة وقلبه مليئا بحب وطنه ، فكان المزارع الوطنى والجندى الوطنى والسياسى الوطنى . ولم تعرف عنه هنة من هنات رجال السيف او السياسة لأنه لم يطمع فى شىء لنفسه ولم ينظر الا بعين مصلحة وطنه .

قائد بالفطرة

وقد عرف واشنطن ميدان الحرب فى حداثته وخبر اساليب الهنود فى قتال الغابات ودرس التكتيك الفرنسى فى اعمال التحصين والدفاع ، ولهذا كان وشنطن جندبا مدربا قبل اىامريكى آخر عندما بدأت حرب الاستقلال .

وكان وشنطن رجلا نبيلا ، جنتلمان رفض الاتجار فى العبيد رغم شيوع هذه التجارة وعمل على ترقية وسائل الزراعة وتزوج مبكرا وكانت سمعته نقية وشخصيته محبوبة ولم تكن تقض مضجعه غير تغلغل النفوذ البريطانى فى بلاده .

ولما لم تعد مندوحة من قتال الانجليز لاجلائهم عن امريكا التفت الانظار عند الرجل الوحيد الذى يستطيع ان يقود القوات الامريكية فعين وشنطن قائدا عاما فى يونيو عام ١٧٧٥ .

ولم تكن مهمة وشنطن ان يتولى القيادة فحسب فقد كان عليه ان ينهض بواجبات اخرى كثيرة ، فالامر لم يكن متوقفا على كفايته العسكرية كقائد ، كان على وشنطن ان ينشيء جيشا ، فالقوات التى كانت بين يديه لم تزد عن كونها مجموعات غير منتظمة ولا مدربة ، وكانت من ولايات مختلفة يميل كل فريق منها الى الدفاع عن ولايته دون غيرها باديء ذى بدء ... وكان الأمر يقتضى انشاء جيش وطنى بمعنى الكلمة يعرف أن المعركة لأجل الولايات كلها وقد تمكن وشنطن من تحقيق ذلك فى مدى عامين وراح ينفق الساعات والأيام فى تنظيم ذلك الجيش وتسليحه وتدريبه ولكى يواجه الجيش الانجليزى .

الشئون الادارية

وكان على وشنطن ان يصرف وينظم مسائل التموين والاعاشة فلم تكن هناك انظمة موضوعة ولا ادارة خاصة لشئون الامدادات والتموين . وقد كان من حظ الأمريكيين ان وقع فى ايديهم فى مستهل الحرب عدة معامل ومخازن انجليزية ومع كل مجهود بذله وشنطن فقد ظل الجيش البريطانى اكثر تنظيما من ناحية المواصلات والتموين رغم مئات الأميال التى تفصل الجيش عن انجلترا ، كذلك كان على وشنطن ان يواجه الوضع السياسى للولايات المتحدة التى اتحدت تحت لوائه دون أن تكون متحدة فى شئونها كافة .. وأحوج ما تحتاجه الحرب « الوحدة » : وحدة الرجال ، ووحدة النضال وكانت مهمة وشنطن دقيقة وشاقة للتقريب بين وجهات النظر وتوحيد الجهود ، فان ايثار كل قوم لصالح ولايتهم كان يزيد من اعبائه .

وقد حمل وشنطن العبء كاملا وعمل بكل نشاط وهمة فى ميدانى العسكرية والسياسة ولكنه كان امام عدو اكثر عددا ونظاما

وعنادا وهيبة فبدأ القتال بارتداد وشنطن الى نيوجرسى وكانت هزيمة مكدرة كادت تقضى على كل أمل لولا ما بذله من جهد وما أتاه من براعة فتفادى أزمة بعد ازمة وخرج من معترك فى اثر معترك دون ان تأتى النهاية .. وعندما كانت الدائرة تدور عليه ويكاد الأمل ان يتبدد ، كان وشنطن يفلت بجيشه من براثن الخطر فلم ييأس قط ولم تفارقه الزكانة ولا البراعة فى تفادى الكوارث . وهنا محك القائد العظيم .

وكانت خطة وشنطن فى انسحابه من نيويورك أن يعرقل تقدم العدو بكل وسيلة فاستخدم الأنهار التى فى طريقه ، وكان يعبر احدها ثم يعسكر على الشاطىء الآخر لصد التقدم الى اطول مدة ممكنة ثم ينتقل الى مانع آخر ، وبهذا كان تقدم الانجليز بطيئا ومحفوفا بالمكاره ولو لم ينجح وشنطن فى عملية الانسحاب لقضى على جيشه وانتهت أمريكا الى يد الانجليز عصر آخر . . . ولكنه استطاع أن يفلت من قبضة اعدائه كلما اوشكت على الظفر به .

الجرأة والفطنة

وكان لا يترك فرصة تسنح له حتى يغتنمها بمهاجمة الانجليز وتكبيدهم الخسائر ومن ذلك انه عبر نهر الدولير فجأة على رأس قوة محدودة العدد وهاجم الانجليز وأصابهم بخسائر فادحة ثم عاد الى خطوطه ومعه الف أسير .. قبل أن يفيق العدو من هول المفاجأة ؟ كذلك كان انتصاره فى معركة بريستون دليل الكفاية العسكرية التى تسطع السحب الكثيفة والظروف السيئة .

كانت معركة بريستون التى انتصر فيها وشنطن على تجريدة انجليزية معركة صغيرة ولكن رائعة وقد برز فيها جامعا بين جرأة الدوق وليم وذكاء مارلبورو ، كما اظهرت اهمية الجمع بين ضروريات القيادة ومقتضيات السياسة .

لم تكن الولايات أمة واحدة ولكن ثلاث عشرة ولاية مستقلة ولم يكن الكونجرس يؤدى واجبه تماما فى هذه المرحلة الخطيره فكاد ان يتسبب فى خسران الحرب ، اذ انه لم يصدر الاعتمادات اللازمة للجيش بالسرعة المطلوبة وكان يرسل رواتب الجنود متأخرة كثيرا وبغير نظام ولم يتخذ الاجراءات الكفيلة بامداد وتموين الجيش فى الميدان ويرجع السبب فى كثير من الأخطاء التى حدثت والتقصير الذى يرجع الى الأنانية ونظر كل فريق الى مصلحة ولايته .

ولما نجح بنيامين فرنكلين فى عقد المحالفة مع فرنسا ، وكانت صفقة رابحة ليس فقط من اجل الرجال ولا المال بقدر ما كانت مهمة من الناحية الحربية ، فقد جاء الأسطول الفرنسى للعمل ، الأمر الذى يستطاع معه قطع مواصلات بريطانيا وامداداتها البحرية ، وقطع خط الرجعة ايضا على الجيش الانجليزى فى حالة الهزيمة . وقد ظهر خلاف فى وجهة النظر بين الضباط البحريين الامريكين والفرنسيين فأفرغ وشنطن كل كياسته وبراعته وتمت الخطة التى ارادها ووقف الاسطول الفرنسى لقطع مواصلات البريطانيين وخط رجعتهم ، وبهذا تحقق الفوز .

البيت الأبيض

ولم يكن وشنطن من الراغبين فى توجيه الضوء الى اشخاصهم ... ومع هذا فعند انتهاء الحرب كان كل امريكى يعلم ان هذا الرجل هو الذى احرز النصر وان امريكا مدينة له باستقلالها . ولقد حارب بشخصه وانشا جيشا من العدم وعلم الكونجرس واجباته وهو يظهر انه خادم الكونجرس ومنفذ اوامره .

وعندما انتهت الحرب اراد وشنطن ان يعود الى مزرعته فى مونت فرنون ولم يكن له اى اطماع ... كذلك عادت الولايات الى شئونها الخاصة ، كانما انتهى الحظر الى الابد ، وكانما لم تتحد

الا فى وقت الحرب .. ولكن كانت هناك واجبـات كثيرة لا بد ان تقضى واعمال عظمى يجب ان تتم ، فالقوانين يجب ان تعـــدل ، والتعاون يجب ان يستكمل والحكومة المركزية يجب أن تنهض .. هنا دارت الانظار جميعها ثم التقت عند الرجل الذى قاد الامريكيين الى النصر فى الحرب ، فهـو هو نفسه الذى يستطيع ان يقودهم الى العظمة فى السلم .

وقد انتخب وشنطن رئيسا للجمعية التى انيط بها وضع نظام الدولة ودستورها وبعد ست سنوات بدات الولايات المتحدة تسير فى الطريق الصحيح للحياة المدنية والسياسية وقد اقامت وشنطن رئيسا للولايات المتحدة بالاجماع فى ٣٠ ابريل ١٧٨٩ .

وقد نجح الرئيس السياسى مثلما نجح الرئيس العسكرى .

واصبحت رئاسة الولايات المتحدة اهم شىء يراه السياسيون ، ليس فى امريكا وحدها ، بل فى العالم كله .

القائد الفرنسى :

نابليون بونابرت



« الحقيقة التى لا مراء فيها هى
ان نابليون احد فلتات التاريخ » .
« جوته »

القائد الفرنسى

نابليون بونابرت

لم يحدث لرجل ان يتحكم فى مصير بلده وجيله ويؤثر فى مصائر الاجيال التى جاءت بعده كما حدث لنابليون ، فهذا الضابط الصغير الذى امتاز بقوة شخصيته ، ومضاء عزيمته وطموحه الهائل قد اهلته عبقريته العسكرية لأن يكون قائد فرنسا وامبراطورها ، وان يواجه اعظم القوات الحربية فى زمانه ـ متفرقة ومجتمعة ـ فيذيقها مرارة الانكسار ... ثم يقولون أن نجاحه كقائد لم يبلغ مبلغ نجاحه كحاكم ورجل دولة ونظام وقانون ومدنية .

ولد نابليون فى ١٥ اغسطس عام ١٧٦٩ فى اجاكسيو بجزيرة كورسيكا ، ونشأ نشأة عسكرية وصار ضابطا فى عام ١٧٨٥ وعندما نشبت الثورة الفرنسية تفتحت آماله ونشطت عزيمته وأعجب بالثورة ومبادئها ولكنه لم يعجب بالفوضى التى حلت بفرنسا والجرائم الشنيعة التى كانت ترتكبها باسم الحرية والاخاء والمساواة .

وعندما واتته الفرصة سارع اليها وأصبح الكابتن بونابرت قائدا للمدفعية فى حصار طولون عام ١٧٩٢ وكانت قد ثارت واعتصمت بمعونة الانجليز .

الوقت كالسيف

ووقف الضابط الشاب امام المدينة التى شقت عصا الطاعة وقال :

« الآن اصبح طرف الحبل فى يدى .. ساحتفظ به جيدا فى قبضة قوية » وصار يضع خطة لم يكن مثلها معهودا فى ذلك الزمان ، فهى خطة محفوفة بالمكاره او هى مغامرة لا ترضى اذواق الجنرالات: « سافصل القوة البريطانية والثوار عن الاسطول . وساوجه مدفعيتى بين البر والبحر ثم أقذف المدينة بوابل من النيران .. فيقع الفار فى المصيدة ».

وقال نابليون « ان الوقت هو اهم شىء » .

هذا هو ما قاله اليوزباشى ، ابن الرابعة والعشرين ، للجنرالات فى باريس .. وقالوا : هذا هراء .

ونجح الهراء وانسحب الانجليز فى ليلة واحدة ، كما توقع صاحب الهراء ، وكان هذا اول نصر حربى يحصل عليه ، وحصل معه على رصاصة فى قدمه وجرح بسيط .

وقال التاريخ : هذا نجم جديد فى سماء الحرب .

لمعت عينا نابليون وقال : سأشق طريقى بحد السيف .

الصبر والشجاعة

« أيها الجنود !

انكم مغلوبون على امركم مظلومون فى طعامكم وملبسكم ، وقد وعدتكم الحكومة بالشىء الكثير ولكنها لم تفعل شيئا لاجلكم ، ان صبركم وشجاعتكم قد اولتكم الشرف ولكنها لم تجىء لكم بخير .. انى سأقودكم الى اغنى وديان العالم ، الى الاقطار الخصبة والمدن العظيمة هناك ستجدون المال والمجد والشهرة » .

وبهذا الخطاب الداوى الذى القاه نابليون على جنود نصف عراة جوعانين ، ارتفع الستار عن فصل من الكفاح العسكرى المرير لتقرير مصير العالم عشرات السنين .

فى تلك السنوات المضطربة الحافلة بالانتصار والانكسار لفرنسا وغيرها من دول العالم كان نابليون البطل الاول على مسرح التاريخ. كان القائد الملهم والحاكم المعلم .. واذا كانت حياته العسكرية قد انتهت بمأساة فان اعماله التنظيمية والقانونية بقيت الى يومنا هذا وستبقى بعدنا شاهدة بنبوغه وعبقريته .

اصبح نابليون جنرالا فى عام ١٧٩٦ وقاد حملة تاريخية ضد النمسا وايطاليا وهو فى سن السابعة والعشرين على رأس جيش ، او على الاصح بقايا جيش ، واستطاع ان يدفع فى هذه البقايا الواهنة روح الغلبة والنصر والفخار وان يهزم بها دول أوروبا . فأين كانت قوة نابليون بونابرت ؟ .

الشباب والصحة

لقد بحث هذا السر كثيرون من المؤرخين والمعنيين بالتراجم ، ومنهم الكاتب العالمى المعاصر اميل لودفيج ، الذى بحث الموضوع من زاوية جديدة ، قال :

١ ـ ان اول اسرار نجاحه : **شبابه وصحته** .

كان يتحمل الركوب ساعات طويلة بلا اعياء ، القدرة على النوم فى اى لحظة ، **المعدة التى تستطيع ان تهضم كل شىء** ، الالمعية التى ترى ما وراء غبار المعركة .

٢ ـ ان الثورة ضربت بالروتين عرض الحائط ، فجعلته جنرالا ، فهى كانت تقدر الناس باعمالهم لابسنهم .. ومن هنا بدا .

٣ – ان خصومه فى المعركة كانوا دونه فى كل شىء .

- لارشيدوق شارل ، الارستقراطى الناعم ، كيف له ان يتحمل المشاق كما يتحملها ذلك الكورسيكى العنيف .
- جنرال بوليو ، القائد النمسوى ، كان فى الثانية والسبعين بينما كان نابليون فى السابعة والعشرين .
- جنرال كولى ، كان مريضا بالنقرس ، يحملونه على نقالة اثناء المعركة – « الفنترى » فى الخامسة والستين .

« ورفر » اطرش بطىء الفكر والحركة .

فماذا كان يستطيع هؤلاء امام قائد شاب دائب الحركة دائم النشاط يركب جواده عشرين ساعة وينقل مركز رئاسته كل يوم ويعتمد على ضباط شبان ويقول : « الوقت هو كل شىء » .

كان اكبر معاونى نابليون سنا الجنرال برتيه فى الثانية والأربعين من عمره وقد استبقاه لأنه كان على علم ببواطن الأقطار الأوروبية ، والجنرال مسينا الذى خدم ١٤ سنة فى الجيش ولم يبلغ الا رتبة الباشجاويش فجعله نابليون بعد عدة اسابيع جنرالا .

كان نابليون لا يرقى الا الضابط الشجاع .

لقد رقى احد رماة القنابل بعد ثلاث معارك الى رتبة القائمقام ، واستغنى عن جميع الجنرالات ، الذين يعملون كل شىء ... ولكن فى المكاتب فقط » .

٤ – ان نابليون كان يعتبر نفسه قائد ((جيش الشعب)) وهذا تعبير ثورى يرضى الجنود ويلهب الجماهير . اما جيوش خصومه فكانت جيوش محترفة ، تنطق ست لغات مختلفة .

وكان الجيش الفرنسى قد اشرب روحا جديدة فهو يمثل ثلاثين مليون فرنسى ، وهو يحارب من اجل حرية الجمهورية

واذاعة مبادىء الثورة الفرنسية ويقاتل لصد قوات الملكية « الشرعية » ... كان الفرنسيون محاطين باقطار الملوك والاباطرة الذين يريدون ابقاء شعوبهم بمنأى عن مبادىء الثورة ، ويعملون المستحيل للقضاء عليها ، ولهذا شرعت فرنسا فى الهجوم ، كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس ...

اى انهم صاروا غزاة رغم انوفهم .

وهذا هو العامل الرابع فى نجاح نابليون ((الهدف)) .

كان يلقى المنشورات قبل قذائف المدافع ليقول لأهالى لمبارديا وايطاليا انه جاء يخلصهم من الذل ويحررهم من آل هبسبورج وملوك سردينيا والدوقيات والاقطاعيات ، فتهيات الاقطار لاستقباله ووجدت املا فى انتصاره .. وهكذا اجتازت مبادىء الثورة الحدود قبل ان تجتازها الجيوش .. كان هناك طلاب الحرية ينتظرون نابليون ... والمعذبون فى الأرض ينتظرون نابليون .

ثم انه كان من دم ايطالى ، ويحمل اسما ايطاليا ، فأحبه الايطاليون ، ولم يكن فى نظرهم غازيا فرنسيا ، بل رجل حرية ومساواة ، وكانت خطاباته تحمل دائما هذين المبداين ، كان لايفتا يذكرهم بمجد أثينا واسبرطة وروما .

وكان يقول لجنوده فى بعض أوامره اليومية :

اقسموا لى أن تحافظوا على الأهالى الذين سنحررهم ، فلا تكونوا سوط عذاب ، اننى وجنرالاتى لا نقبل قيادة جيش لا يعتصم بالشرف ويعتز بالنظام والضبط والربط .

واعطى أمرا للقادة باعدام من يخفى شيئا منهوبا من الأعداء وكان مطلعا فى التاريخ وقد قرأ وهو برتبة الملازم كتاب « بلوتارك » من حياة العظماء ، وقرأ تاريخ العالم وتاريخ ايطاليا وحكامها ونظمها

وطبائع اهلها . لقد اصبحت المعارك البسيطة بفضل كلماته معارك عظمى ، وصارت المعارك قسما من تاريخ العالم .

ان نصف ما أحرزه نابليون من انتصارات .. احرزه بكلمات .

انظر خطابه الى جنوده فى ميلان :

« ايها الجنود .. لقد انقضضتم كالسيل الجارف من مرتفعات الابنين فصارت ميلان لكم ، اننا أصدقاء الأهالى . اصدقاء احفاد برنوس وسيبيو والآخرين من الأبطال الخالدين سنعيد بناء العاصمة ونقيم تماثيل الأبطال وتوقظ الشعب الرومانى الذى عاش قرونا فى ظلال العبودية .. هذه هى ثمرات انتصاراتكم ثم تعودون بعدها لدياركم ، وسيشير جيرانكم على أحدكم قائلا بفخار : « لقد كان مع الجيش فى ايطاليا » .

فهل سبق لقائد أن وجه مثل هذه الكلمات لجنوده .. للأهالى .. للأصدقاء .. للأعداء .. ان نابليون كان يعرف كيف يسيطر على الناس من ناحية مراعاة شعورهم واذكاء اسباب الاقتناع ، وليس بأسلوب الاخضاع .

● استطاع بونابرت بسن القلم أن يثبت الانتصارات التى احرزها بحد السيف .

الجيش يقـول

سارت حملة نابليون على ايطاليا بطريق الألب الشاقة وكان جيشه كما قدمنا قليل المؤن والذخائر بيد انه كان قويا فى روحه المعنوية مشتعل الحماسة ، فما ان نزل فى السهل الأعظم حتى مزق شمل اعدائه فى موقعة « مونتنوت ـ ابريل عام ١٧٩٦ » .

ومازال يتتبع السردينيين حتى نفضوا ايديهم من محالفة النمسويين وتخلوا عن نيس وسافوى فى ابريل ١٧٩٦ . ثم اتجه الجيش الفرنسى الى غريمه ، فارتد بوليو أمام العاصفة تاركا سهل لومبارديا مفتوحا أمام نابليون الذى دخل ميلان ثم منتوا التى استسلمت بعد معركة قاسية ، فواصل زحفه الى فينا .. واضطر النمسويون الى التقدم بطلب الهدنة .

وكتب نابليون الى حكومته فى باريس يقول :

« تلقيت مشروع معاهدتكم مع سردينيا ، لقد وافق عليها الجيش » .

وصعق رجال الحكومة من هذا الأسلوب ، اذ لم يعرف من قبل ان قائدا فى الميدان واجه حكومته بمثل هذا التصريح .. وقال خصومه فى باريس ـ من أجل هذا الخطاب ! يجب أن يقف هذا البطل الصغير أمام جماعة ضرب النار ..

ولكن حال دون ذلك شهرة اسم نابليون وانتصاراته ، والمجد الذى احرزه فاتح لومبارديا .. فأصبح بمنجاة من البطش .

واخذ نابليون يعمل بسرعة فقد كان يقول : قد اخسر المعركة ولكن لن يرانى احد أخسر بضع دقائق .

وكانت أول معركة كبرى هى : لودى .

عملية خداع متقنة ، وحركة جسورة عصفت بالقوات النمساوية التى فوجئت بالهجوم .. لقد نال فيما بعد انتصارات أعظم شأوا ، ولكن انتصاره هذا الرائع لم يكن له مثيل لما احدثه من اثر فى الروح المعنوية ، فبدأ يرى بوضوح طريق المجد .

لقد قررت « لودى » مصير القسم الأول من الحملة ، واظهرت

بوضوح علامات عبقريته العسكرية ، فاختلطت الاحلام بالحقائق والخطط المبهمة بالاعمال الباهرة .. « اننى تنبهت بعد معركة لودى الى اننى انسان ملهم ، ويومها كان بداية تحقيق آمالى فى ان اعمل شيئا عظيما مما كان يبدو لى فى الماضى اضغاث احلام » .

نعم كان يدور براسه غزو قارتين او ثلاث ، ولكن كان يدور براس الكبار فى باريس وقف نابليون ؟ وكانت اول خطوة لذلك ارسال الجنرال كارمان ليشاطره العمل .

قائد واحـد

وقد كتب نابليون لحكومته بصراحة انه يفهم انها تضع فى طريقه العراقيل وقال : قد يكون الجنرال كارمان قائدا ممتازا يستطيع ان يعمل شيئا حسنا ولكننا نحن لانتفق معا ، سنعمل شيئا رديئا .. لايمكن ان تكون المسئولية مجزاة ، واننى استعين بشجاعتى لتحرير هذه الكلمات التى قد تفسر بانها من نتاج المطامع والعظمة .. اننى لا استطيع ان يعمل الى جانبى قائد يعتبر نفسه احسن جنرال فى اوروبا « ان قائدا رديئا افضـــل من قائدين ممتازين » .

لقد رفض نابليون ما ارادته الحكومة من تعيين قائد معه ، ووصل الى باريس رده الحاسم : لا .

وفى اليوم التالى تحرك الى ميلان ، وهناك حيته الجماهير فخطب فيهم قائلا :

« ستكونون احرارا وفى مأمن اكثر من الفرنسيين انفسهم ، ستكون ميلان عاصمة الجمهورية الجديدة ذات الخمسة ملايين ، وساختار منكم خمسين رجلا لحكمها باسم فرنسا .. ان اثينا واسبرطة لم يذهبا الى الابد » .

نعم من عهد بلوتارك وابطاله لم يات قائد كنابليون يقول مثل

هذه الكلمات . كان نابليون يرى **الجمع بين القيادة العسكرية والسياسية والمالية اثناء الحملة** : « يجب ان توضع الثقة كلها فى قائد واحد ، لا يتدخل احد فى عمله ، ان امامى ان افعل كل شيء بجيش ضعيف . لا بد ان ادفع القوات الهجومية وازيل الحصون واحفظ خطوط مواصلاتى ، واستولى على جنوة وفنسيا وتوسكانى وروما ونابلى واثبت قوتى هنا وهناك ، وفى كل مكان . ولهذا فلابد من توحيد جميع القوى العسكرية والسياسية والمالية فى يدى .

اذا لم يكن الجنرال هو المركز الرئيسى القوى ، فان الجيش يتجه نحو الهوة » .

حكومة المحامين

كانت الحكومة فى باريس تحتفل بالنصر ، وتأتمر بالمنتصر .

وهنا حاول نابليون أن يحصل على امداد ومؤن ، وكانوا يتداولون فى أمره وكيف يقضون عليه قبل ان يقضى عليهم . فانه يحرز النصر ، ويتفق على الهدنة « فاذا عاد الى باريس بطلا فاتحا فسوف يدفعنا بيد واحدة ويأخذ الحكم باليد الأخرى » .

وكتب اليهم نابليون محذرا ومنذرا :

« باسم ثمانية الف رجل احذركم واقول لكم : ان الوقت الذى كان حفنة من المحامين يستطيعون فيه السيطرة على مصائر آلاف الجنود وسوقهم الى المذبحة .. قد انتهى ولن يعود .

فباسم الجيش انتصر نابليون . وباسمه أجاب طلب الهدنة . وقد تم عقد صلح كامبو فورميو فى أول اكتوبر عام ١٧٩٧ وبه تخلت النمسا عن كل أملاكها فى ايطاليا ، وكسبت فرنسا نصرا عظيما .

الى الشرق

لقد استطاع نابليون ان يحقق حلمه الذهبى بغزو ايطاليا وقهر النمسا ، فهل كان ذلك نهاية الحلم ؟ .. لا ، ليست هناك نهاية ، فكل خطوة تفتح بابا جديدا من ابواب الأمل ... كان ينظر الى الأفق البعيد ويرنو الى القسطنطينية فيصبح مالكا لدولة اعظم رقعة من ملك آل هابسبورج .

(اننى ذاهب الى الشرق للاستيلاء على مالطة ومصر ، وطرد الانجليز من شاطىء البحر الأحمر . وفتح قناة السويس) .

ترى .. هل ذهب نابليون الى الشرق ليفعل ما فعله الاسكندر فيصبح قاهر الدنيا ؟ أم اراد هدم سيادة بريطانيا ؟ .. يبدو انه اراد الهدفين معا .

وتحركت الحملة من طولون يوم ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ .

وكان فى طريقه الى الميدان الجديد يقرأ : رحلات فى مصر ، حياة بلوتارك كتب هوميروس ، معارك الاسكندر . القرآن الكريم .

وهناك فى صحراء مصر وقف امام تمثال « ابو الهول » ، العين فى العين والصمت متبادل ، ولكن فكره كان يقول :

هنا وقف الاسكندر من قبل ، وقيصر ، وها انذا فى مكانهما الخالد « ان اربعين قرنا تنظر الينا من قمة الأهرام » .

ولم يكن غزو مصر عسيرا . وهو لم يأت لها بالسيف وحده ولكن جاء بالعلماء والاخصائيين يغيرون نظام الحكومة وينشرون العلم ويقيمون دعائم المدنية الحديثة .. كان يدفع قواته الى القتال واراقة الدماء ، ويوجه معاونيه الى البناء واقامة العمران .

موقعة النيل

كان الانجليز لنابليون بالمرصاد ، واذا كان قد غافلهم وشق طريقه فى البحر عجبا الى وادى النيل فان فى استطاعتهم حصاره ،

ولم يلبث أسطولهم البريطانى حتى اقبل على « ابو قير » وفاجأ المراكب الفرنسية فى معركة سريعة قضت عليها وقطعت طريق الاتصال بين فرنسا وجيش الشرق ، فلما سمع نابليون بهذا النبأ الصاعق قال : « اذن قد أصبحنا محصورين فى مصر » .

وراح يفكر : لو اننى تركت هنا خمسين الف جندى واخذت معى ثلاثين الفا ، لأفتح الهند ؟ .

وقطع عليه حبل تفكيره اعلان تركيا الحرب على فرنسا وعزم الحكومة التركية على تسيير جيش الى سوريا وآخر الى الاسكندرية بمساعدة بريطانيا فاضطر نابليون الى ان يعمل بسرعة لمباغتة خصومه فى سوريا ، فخرج الى العريش ومنها زحف الى غزة ويافا ثم حاصر عكا وكانت « بندقة صعبة الكسر » فان معدات الحصار كانت قد وقعت فى أيدى الانجليز فلم يفلح نابليون فى فتح عكا واضطر للعودة الى مصر لملاقاة القوات التركية التى نزلت فى الاسكندرية .

وفى يوم ٢٥ يوليو ١٧٩٩ فاجأ بونابرت هذه القوات وبدد شملها عند أبى قير ، وقال الجنرال مورا لقائده نابليون :

« ايها الجنرال : انك كبير كالدنيا . ولكن الدنيا صغيرة بالنسبة لك » .

السيف والروح

اضطرب حبل السلام فى أوربا وتحالفت روسيا وانجلترا والنمسا ضد فرنسا واشتبكت فرنسا فى حرب مع نابلى وسردينيا ، ففكر نابليون فى العودة سرا ، ولو بغير انتصار ، وكانت فرنسا فى حاجة اليه لدفع الفوضى التى بدأت تدب فى أوصالها وأرغمت حكومة الادارة على استدعائه فلما عاد الى وطنه وجد « الكمثرى ناضجة » فانضم الى جبهة الزعيم « سييس » الرأس ، ونابليون

اليد فحدث انقلاب برومير ، وبمقتضاه ارغمت حكومة الادارة على الاستقالة وتدخل الجيش فى تطهير مجلس الشيوخ والنواب وتألفت حكومة مؤقتة لادارة شئون البلاد . ووضعت السلطة التنفيذية فى يد ثلاث قناصل ينتخبون بواسطة الشيوخ لمدة عشر سنوات على ان يكون بونابرت قنصلا اولا .

وكان نابليون يقول « ان الذى يعجبنى اكثر من كل شيء هو ضرورة القوة لتنظيم اى عمل .. **توجد فى العالم قوتان : السيف والروح . والسيف دائما ينهزم أمام الروح** » .

هكذا كان نابليون يفكر بعقلية المحارب وروح المصلح .

ولم يكن بد من امتشاق الحسام لتأمين سلامة فرنسا من اعدائها المتحالفين عليها وبدأ بالنمسا التى كانت قواتها تهاجم الفرنسيين فى ايطاليا ، فحمل عليها نابليون حملة شعواء مجتازا جبال الالب وسويسرا هابطا الى سهول لمبارديا مهد مواصلات النمسويين الذين دحرهم فى سهول « مارنجو » ١٤ يوليو ١٨٠٠ ــ فكانت من معارك التاريخ ــ وقد نال الفرنسيون نصرا ثانيا فى معركة هوهنلن فسعت النمسا الى الهدنة وعقدت معاهدة « لونيفيل » .

وهكذا تمت خطوة هامة من خطوات السلم الذى كان ينشده نابليون . كما انه قبل شروط فى صلح اميان ــ مارس ١٨٠٣ ــ مع انجلترا ، وسحب قواته من مصر ، وبهذا انتهت الحرب واستقر السلم ، وشرع نابليون يجرى يد الاصلاح فى فرنسا ، واستطاع فى مدى اربع سنوات ان يتم تنظيم فرنسا وكافة مرافقها وشئون الحكم والاقتصاد والعمران ، وكان من نتائج ذلك ان وافق الشعب بأغلبية عظمى فى عام ١٨٠٢ على تعيينه قنصلا مدى حياته .

يحيا الامبراطور

وفى يوم ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٤ احتفل بتتويج الامبراطور فى كنيسة نوتردام ، وكان المنتظر ان يركع نابليون امام قداسة البابا ويقبل اطراف ثوبه فيتفضل هذا عليه بالتاج ويضعه على راسه وفى اللحظة المرتقبة فاجا نابليون الجميع بأن نهض من مقعده فاخذ التاج بيده ووضعه على راسه ، ثم تناول تاج الامبراطورة ووضعه على راس جوزفين .

وهكذا توج نابليون نفسه ، على النحو الذى حدثنا به امير الشعراء شوقى :

مجلس التاج على مفرقه بيديه لا بايدى المجلسين

واذن فقد وصل الضابط الكورسيكى الصغير الى عرش فرنسا ووضع التاج على مفرقة بيديه .. ومع هذا فانه قال : لقد جئت الى الدنيا بعد فوات الأوان ولم يعد هناك شىء عظيم لافعله .. ما أبعد الفرق بينى وبين العظماء الذين صاروا فى التاريخ .. انظر الى الاسكندر فانه بعد غزو آسيا أعلن انه ابن الاله جوبيتر وصدقه العالم كله ـ عدا امه واستاذه ارسطو ـ اما انا فاذا أعلنت نفسى ابنا لأحد الخالدين فان زوجة أى صياد سمك سوف تضحك وتهزأ بى !

كان يحلم دائما بالشرق .. وامبراطورية عظمى يرفرف عليها السلم .

وكان يفسد عليه حلمه الجميل : كابوس .. الاسطول البريطانى .

فكيف يدحر بريطانيا ؟ .

لاجديد تحت الشمس

فكر نابليون فى دحر بريطانيا بمقاطعتها اقتصاديا أى بمنع

مراكبها من دخول الشاطىء الاوروبى ، كذلك فكر فى محاولة انزال قواته على ارض بريطانيا وكان يقول : « آه لو تمكنت من وضع قدمى على هذه الجزيرة » .

واخذ يفكر ويبتكر ويدرب اسطوله وجنوده ولكنه للمرة الاولى شعر بمرارة الاخفاق لانه لم يكن اخصائيا فى الحرب البحرية .. وقد حطم نلسون هذا الأمل بضربه الاسطول الفرنسى فى الطرف الاغر عام ١٨٠٥ وراح نابليون يدعو للسلم ويكتب الرسائل للملوك ومنهم ملك بريطانيا ، ولكن جميع الدول ـ بتأثير الدسائس البريطانية ـ لم تقبل ان تكون فرنسا اكبر قوة فى العالم . ولم تأمن أن يكون على راس فرنسا مثل هذا الجندى الرهيب .

كان الاسكندر الأكبر مثله الأعلى ، ولكنه بعد تتوجه ، فكر فى نموذج آخر ... فى شرلمان ، لقد ذهب لزيارة قبره فى اكس لاشابل ، وعاد يقول : « لن يكون هناك سلم الا اذا كانت أوروبا كلها فى يد امبراطور يجعل من ضباطه ملوكا عليها ... ان امبراطورية شرلمان ستعود من جديد . حقا .. لاجديد تحت الشمس » .

وبدأ تنفيذ سياسته الجديدة . فحول جمهورية ايطاليا وراثية يحكمها ابن زوجته « أوجين » ثم الحق بيدمنت وجنوه وبارما بأملاك فرنسا وراح يتطلع الى سويسرا ويدفع الولايات الالمانية الى الاتحاد فى قبضته .

هذا بينما كان حلف جديد قد تكون من روسيا والنمسا والسويد تؤيده بريطانيا وعادت الحرب ؟ .

التقى الجيشان الفرنسى والنمســوى فى أولم Ulm اكتوبر ۸۰۵ واحرز نابليون نصرا مجيدا بفضل عنصر المفاجاة . قال نابليون « لقد قبضت على الجيش بحركة يسيرة » ، ولقد ثبتت هذه الحركة قدم الامبراطورية ، مثلما ثبتت « مارنجو » قدم القنصلية من قبل ودخل نابليون فينا ، فانضمت فلول قوات النمسا الى قوات روســيا وكان الملتقى فى أوسترلتز ، واحــرز الامبراطور انتصارا عالميا جعل وليم بت رئيس وزراء بريطانيــا يقول « فلنطو خريطة اوروبا ، فلا حاجة لنا بها عشرة اعوام » .

وقد ترنم امير الشعراء بهذه الوقعة فقال محييا نابليون :

عنـــد اســترلتز كان الملتقى واصطدام النسر بالمستنسرين
صدتشاه الروس والنمسا معا من راى شاهين صيدا فى كمين

وكان الامبراطور نابليون فى خلال المعركة يرتدى حلة الجندى بجميع تفصيلاتها وخشونتها ويجلس بين ضباطه على الأرض ويحيا حياة جندى عادى ، وكتب الى زوجته يقول « لقد هزمت النمسا وروسيا معا ، وانتهيت من المعركة الآن ، ولا بد لى ان أذهب الى الفراش لأول مرة منذ اسبوع ، وسوف أنام فى غرفة نوم البرنس كونتز .. عسى أن انام ساعتين أو ثلاث » .

وظل شبح الحرب ماثلا .

فقد فشل نابليون فى مفاوضته لروسيا وانجلترا ، وبات يخشى تاليف حلف جديد ضده وخاصة بعد ان ثار ضباط الجيش الالمانى ، حفدة فردريك الاكبر واضطروا حكومتهم لارسال انذار لنابليون بالجلاء عن المانيا .. فتذرع نابليون بهذا الانذار ، وباغت بروسيا فى موقعــة سالفلد ثم فى موقعــة « ينــا » اكتوبر ١٨٠٦

ودخل برلين ، واخذ سيف فردريك الاكبر واعتبره اثمن كنز تلقته يداه ، ثم قابل الشاعر الخالد جوته وتبادلا التحية والاعجاب .

وفى عاصمة المانيا اصدر نابليون « مراسيم برلين » التى اعلن بها حصار الجزر البريطانية وحرم على أوروبا الاتجار معها او فتح موانئها لسفنها ، وفى هذا قال « اريد هزيمة البحر بقوات البر » وراح يتعقب فلول الجيش الروسى المتراجع نحو الحدود الروسية حيث سارع قيصر روسيا الى نجدته ، وهناك فى الوا ، وفريدلند انتصر نابليون وسارعت الحليفتان الى عقد الهدنة ، ثم تقابل الامبراطور نابليون والقيصر الاسكندر فى نهر منمين واتفقا على شروط معاهدة نيلسن التى ولدت مملكة وستقاليا فى املاك بروسيا غرب الرين ونصب عليها « جيروم » اخوه الأصغر ، وتعهد نابليون بمؤازرة القيصر فى فنلندا وتعهد له القيصر بالوقوف معه ضد بريطانيا .. وهكذا بلغ ملك نابليون اقصى اتساع .

حرب العصابات

اراد نابليون ان يغلق سوق أوروبا فى وجه بريطانيا ولم يقبل ان تقف اى دولة على الحياد ، وضم الى املاكه جميع الشواطىء الالمانية واستولى على هولندا واغار على البرتغال التى رفضت الخضوع لقراراته ، فكانت أهم الأسواق الانجليزية . ثم اعلن ضم املاك البابا الى فرنسا وقبض عليه وسجنه ، واخيرا أجبر ملك اسبانيا وولى عهده على التنازل له عن العرش فى ابريل ١٨٠٨ وتوج أخاه « يوسف » ملكا على اسبانيا .

وبدا فصل جديد من المسرحية الدامية ..

وقال نابليون بعد ان تورط فى غزو اسبانيا .

« هذا اسخف عمل قمت به فى حياتى » .

فرد عليه احد صحبه القدامى :

يصح أن تنسحب ياسيدى ، وتترك هذه البلاد لأهلها .

فقال نابليون : « لا يمكن ترك مكان وصل اليه عقلى وسيفى » ومن العسير أن أعترف بأنى وقعت فى خطأ فاحش ، واسحب جيشا منهزما .. هل انا نابليون الصغير . أو نابليون العجوز ؟ .

كانت الشعوب تنشد الاستقرار ، ونابليون لايملك الا الحرب .

لقد اخفقت جميع محاولاته لاقرار السلم فى أوربا ، وراحت تتالب عليه ، فلم يكن بد من اخضاعها بالسيف .. واذن فقد كان عليه ان يخضع النمسا وايطاليا ، وبروسيا ، واسبانيا ، وروسيا .. وبريطانيا .. ليس هذا فقط ، بل ساسة فرنسا ايضا .

وهنا بدات نقطة التحول .

ومرة اخرى كان الجواد الأبيض المشهور يدق ارض النمسا ـ ملعبه المفضل ـ وصاح بونابرت فجأة : « لقد وجدتها ، ان جيشهم سيفنى ولن يمضى شهر حتى اكون فى فينا » .

وقطع الجيش الكبير ٦٥ ميلا فى اربعين ساعة وحطم الجيش النمسوى فى ٥ معارك ، ثم بارح النمسا الى بروسيا ، وعاد فى خمسة أيام من درسدن الى باريس .. كان اسرع رحالة فى زمانه .



س ـ ما هو اقصر طريق الى موسكو؟ .

جـ ـ كل الطرق توصل الى روما ياسيدى ..

ان شارل الثانى عشر ذهب بطريق بولتافا .

سمع الامبراطور نابليون هذا الرد من الاسير الروسى ثم ارخى العنان لجواده واستمر يذرع الطريق الطويل فى الفيافى الروسية املا فى الالتقاء بالجيش الروسى فى معركة .. كانت مقدمة الجيش الفرنسى تلتقى بين حين وحين بمؤخرة الجيش الروسى ولكن لم تحدث معركة قط ، وكان الضيق يشتد بنابليون والعصبية تخنقه فى كل مساء يتوقع المعركة فى الصباح وفى الصباح لايجد اثرا لجيش العدو الماكر .. وتضحك روسيا ، وتضحك بريطانيا .

وفقد نابليون ثلث جيشه قبل ان يشتبك فى المعركة ..

وراح يعجب لتضحية الروس بمدنهم ، ثم التقى الجمعان فى بوردنيو ودارت رحى معركة ضروس خلفت ٧٠ الفا بين قتيل ونصف قتيل .

ووصل نابليون الى موسكو ..

وقال الامبراطور : موسكو .. حانت ساعتك ..

وقف ينتظر مفاتيح المدينة ـ ياتى بها عمدة موسكو ـ وينتظر الطعام الشهى للجنود والثياب الثقيلة .. وطال به الانتظار ، دون جدوى ، واخيرا ركب ومعه اركان حربه قاصدا الكرملين .

وجد المدينة صامتة . والطرق خالية ، والابواب مفتوحة .. ولا انسان ثم راى شيئا رهيبا .. النـار .. ان موسكو تحترق ..

« وفقر نابليون فاه ، وتلاشت أعصابه . واضطرب تفكيره ؟ وجعل يصيح : ما ابشعه من منظر ، يدمرون بيوتهم بأيديهم ؟ هذه القصــور .. أى قرار جنــونى .. أى اناس هؤلاء .. النــار فى الكرملين ؟ ..

ووضع كمية من السم أعدها له أطباؤه فى كيس صغير مشدود الى عنقه ليستخدمه عند اللزوم .

أنا .. الجيش الأكبـر

وبالامس كان جنود نابليون يتســاقطون من شــدة الحر فى صحراء مصر ، وها هم اولاء يتساقطون من شدة البرد فى روسيا . فقد كان يريد ان يحكم الدنيا وحده ؟ ولم يصل الى سمولنسك فى عملية الانسحاب سوى ٥٠ الفا ـ أى ١٠ ٪ من جنود الحملة ـ يتهددهم الصقيع ، والقوقاز .

وعادت فلول جيشه الى الحدود الفرنسية فى حالة يرثى لها ، حتى ان المارشال تاى ـ أشجع الشجعان ـ دخلها ممزق الثياب كريه المنظر ، فلما سأله الناس من أنت ؟ قال : **أنا الجيش الكبير :**

وكان لهذه الهزيمة الماحقة التى دمرت قوات فرنسا أثرها فى تأليب دول أوربا ، وكان نابليون قد عاد ومعه خمسون الف مقاتل فقط . من نصف مليون .

واخذ فى اعداد حملة جديدة .

وقال .. هذه المرة سأفعل كما كان يفعل : الجنرال بونابرت »

وادار معركة « لوتزن » بكفاءة نادرة ثم احرز نصرا جديدا فى « بوتزن » . كان همه فى صعود ونجمه فى قعود .

وكان يقول : ان صقيع روسيا أفقدنى كل شيء .. الا الشرف .

التنــازل عن العــرش

وكانت كرة الحكم فى فرنسا قد وصلت الى قدم تاليران الذى راح يلعب بمهارة ، ويسعى لاصابة الهدف : انقاذ فرنسا .

ورفض الحلفاء مفاوضة نابليون ، فارسل تاليران مسيو كولينكور للتفاهم مع الامبراطور فوجده فى قصر « فونتنبلو » .. يصلى ..

وابتدره الامبراطور : ماذا تريد منى ؟

فاجاب : تضحيات عظمى .. تتنازل عن العرش لابنك .

النسر فى القفص

تم الاتفاق على نفى نابليون فى جزيرة اليا وهناك .. عاش النسر فى القفص ، ولكن آماله لم تحبس معه .

وكانت الامور قد صارت فى فرنسا على غير ما اراد لها ، وعاد آل بوربون للحكم وفجاة .. انطلق النسر من عقاله وهبط الى ارض فرنسا .. وفزعت اوروبا كلها ، وارسل اليه ملك فرنسا الجيش بقيادة صفيه « ناى » ليحضر به حيا او ميتا .

ووقف نابليون امام جنوده ، وقال :

« اننى امبراطوركم .. فاذا كان بينكم من يريد قتلى فليتقدم »

فرد عليه صوت كهدير المدافع : يحيا الامبراطور .

المسألة هزم

وفى ووترلو كان الملتقى .

ووقف نابليون فى شالروا على راس ١٢٤ الف جندى ووقفت قبالته الحلفاء ٢٢٠ الف ، وفكر نابليون بسرعة ، وراى ان يبدا

بمهاجمة الجيش البروسى بقيادة بلوخر عند « لينى » يوم ١٦ يونيو ١٨١٥ ولكن بلوخر نجح فى تفادى الكارثة وارتد بنظام صوب المواقع الانجليزية وحينئذ تحول نابليون الى جيش ولنجتون وبدات معركة ووترلو .

وكان « جروش » قد اخفق فى حجز وتثبيت الجيش البروسى واخطأ فى فهم أوامر قائده نابليون ، فأفلت منه بلوخر ، وبدلا من ان يحصر الجيش الفرنسى جاء الجيش البروسى ، فكانت مفاجأة وصـدمة لنابليون ، ومال ميزان المعركة وفى اللحظة الاخـيرة .. انتصر ولنجتون .

وفى معركة تسعة ايام اضاع نابليون الامبراطورية التى جاهد لانشائها فى تسعة اعوام وخرج نابليون من مسرح الحرب والسياسة ودخل الى ساحة التاريخ الذى شهد أنه أكبر عبقرية عسكرية . وفى سانت هيلانة قضى نابليون البقية الباقية من حياته ، وهناك كتب مذكراته وفيها يقول :

(نحن شهداء مبادىء خالدة ، يبكى حظنا الملايين من الخلق ويتأوه الوطن لمصابنا .. ولو كنت مت وانا فى أوج عظمتى لبقيت الى الابد لغزا لا يحل) .

القائد الروسى :

المارشال كوتزوف



القائد غير المشهور الذى هزم

بونابرت على ابواب موسكو ..

وانقذ روسيا من الضياع .

بفضل : الصبر والوقت .

كان نابليون يمنى نفسه بالسيطرة على اوربا ، ولم يكتف بما وصل اليه من انتصارات وفتوح ، وانما اراد كل شيء .

ولهذا قرر غزو روسيا ـ رغم ما كان بينه وبين امبراطورها اسكندر ، من اتفاق وصداقة وتعاون ـ وكان قد هزم كل جيوش اوروبا . ولم يبق امامه سوى جيش روسيا .

وفجاة وجد الروس بلادهم تحت اقدام الغزاة فى حرب صعبة المراس طويلة الأمد متدفقة الدماء .

وتلفت الشعب والجيش فى ارتقاب المنقذ .. الرجل الذى يستطيع ان يقف فى وجه الاعصار ، ويرفع يده فى وجه نابليون ، وينقذ روسيا من البطش والمهانة .

واجتمعت الكلمة على قائد متواضع ، اعور ، حنكته التجارب فى الحروب ، ومع نابليون بالذات ، وكان يجمع بين الاتزان والجسارة ، كان يحسن تقدير الموقف ويجيد تنفيذ الخطة .

كان القائد الذى اختارته العناية لمنازلة نابليون بونابرت ، وانقاذ روسيا ، هو كوتزوف ..

ميخائيل لاربو نوفتش كوتزوف . أمير سمولنسك (١) .

وكانت خطته : الصبر والوقت .

ولد كوتزوف فى بطرسبورج (لييننجراد) يوم ١٦ سبتمبر ١٧٤٥ .

والتحق بالجيش وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، فحارب فى بولندا بين سنتى (١٧٦٤ ـ ١٧٦٩) وفى تركيا بين سنتى (١٧٧٠ ـ ١٧٧٤) وفقد احدى عينيه فى القتال .

---

(١) مدينة روسية مشهورة ، كوفئ كوتزوف باسمها ، تقديرا لبطولته العسكرية

ورقى الى رتبة اللواء فى ١٧٨٤ ، وعين حاكما عسكريا فى « كريميا » تحت أمرة القائد الروسى الشهير « سوفاروف » الذى تكشف مواهب كوتزوف فدفع به الى حيث تتبعه الانظار والافكار .. والثقة .

وبرز كوتزوف فى معارك الحرب التركية عامى (١٧٨٨ ـ ١٧٩١) فى اوخاكوف واودسا وبندا وريمنك وماشين ورقى الى رتبة الفريق ثم تقلب فى عدة وظائف دبلوماسية وعسكرية منها سفير روسيا فى القسطنطينية وحاكم عسكرى مدينة بطرسبرج .

وفى عام ١٨٠٥ قاد الجيش الروسى الذى اشترك فى منازلة نابليون عند غزوه للنمسا ، واستطاع أن يحرز نصرا محليا فى معركة « ورنشتين » العنيفة .

واخذ كوتزوف يتتبع انباء بونابرت ويدرس خططه ويراجع اساليبه لكى يكشف افكاره ويتعرف على مناوراته وامكانياته ، فقد كان يعلم أنه لابد من هزيمة نابليون لكى تستريح اوروبا كلها .

وقبيل نشوب معركة استرلتز كان القادة خصوم نابليون يتشاورون .. واخذ كوتزوف يتتبع المناقشة صامتا حتى اذا طلبوا منه ابداء رأيه قال فى ثقة وثبات :

« رايى ان لا تكون هناك معركة على الاطلاق » .

اى انه كان يرى تفادى المعارك الحاسمة حتى لا يستطيع نابليون ان يدمر القوات العسكرية المضادة له ، وانما كان راى كوتزوف القيام بمناورات وعمليات انسحاب وهجمات الفدائيين والاهالى مما لايعطى نابليون فرصة الانتصار السريع ويؤذى خطوط مواصلاته ويعرقل خططه القائمة على السرعة والعنف .. وبذلك لا تكون المعركة مجرد جولة سياحية من جولات نابليون المشهورة فى ملعبه المفضل .. ولم يؤخذ براى كوتزوف ، ودارت

المعركة ، واستطاع نابليون أن يهزم الجيشين الروسى والبروسى فى عملية خاطفة .

وكاد كوتزوف أن يفقد حياته فى هذه المعركة ، ولكن القدر اكتفى بأن يعطيه عدة أوسمة من الجراح .

وبين سنتى ١٨٠٦ ، ١٨١١ تقلد كوتزوف مناصب القيادة فى لتوانيا ثم فى كييف .. وبقى مدخرا حتى اقبلت الساعة الحاسمة .

دخل نابليون روسيا على راس « الجيش الكبير » تؤازره قوات عسكرية تمثل اثنتى عشرة دولة اوروبية . وهبت روسيا شعبا وجيشا وحكومة لتدفع هذا الاعصار الجرار ، الذى استمر مندفعا عبر سمولنسك ، ثم بوردينو .. واصبحت موسكو هى الهدف .

وكان الجيش الروسى يلتزم خطة الانسحاب مع القيام بأعمال المؤخرة ، وهى تعطيل العدو وتصعيب طريق التقدم .

وكان الشعب الروسى طوع امر قادته فاشترك فِى مواجهة الهول وتحمل المآسى التى انصبت عليه . كان الأغنياء الروس يتخلون عن قصورهم وعمائرهم ، والفقراء الروس يحرقون الزرع والضرع ويقيمون كل عقبة يستطيعونها فى وجه الغزاة ..

وكان الجيش الفرنسى لا يحارب الجيش الروسى بل يغزو مدنا محترقة ويخوض حقولا من الاشواك والصخور والدماء والاشلاء ، ويتقدم بين الخرائب والانقاض .. الى مستقبل مجهول .

وقد حدثت وقفة عند « بوردينو » ولكن لم تكن معركة فاصلة ، فانسحب الجيش الروسى كما تتراجع الكرة فور اصطدامها بكرة اكبر حجما واثقل وزنا وقد اندفعت الكرة الاقوى من تأثير الصدمة ايضا شوطا .. الى الامام ..

وارتد الجيش الروسى صوب العاصمة القديمة بعد ان انسحب

ثمانين ميلا ثم اخذ الجيشان يستعدان خلال خمسة أسابيع للمعركة التاريخية الحاســمة .

كان هذا الخطر المروع الذى تعرضت له روسيا ، والذى اوشك ان يصبح كارثة محققة كانت تختلف فى أسبابه ووســائل دفعه عقول كثيرة .. الا عقلا واحدا رسخت الحقائق فى اعماقه .. انه كوتزوف القائد العام الذى كان يعيش فى خضم هذا المعترك الرهيب ويرى بعينه مصــير بلاده يتأرجح بين البقاء والفناء ؟.

وعلى مشارف موسكو بعث كوتزوف بأحــد قواده الجنرال « ارمولف » يستطلع الموقف فعاد يقول انه ليس فى الامكان الدفاع خارج موسكو ، واذا اشتبك الجيشــان فســوف يخسر الجيش الروسى معركته الأخيرة .

وهرع كوتزوف الى عربة القيادة وانطلق فى الطريق الذى يتقدم عليه الفرنسيون الى موسكو .. ودار حول المكان ، وهناك استدعى جنرالاته وجمع مجلس حرب فى أرض المعركة للتداول فى الموقف والنظر فى الحلول المختلفة .

كان هناك راى يقول بالدفاع عن موسكو .

ويتزعم هذا الراى الجنرال بنجسن ، قائد القوات الروسية فى معركة فرد لاند .

بدأ بنجسن الحديث بسؤال عن الهدف : هل نخلى العاصمة التاريخية المقدسة بغير معركة او ندافع عنهــا .

ثم علق على ذلك بقوله : حقا انه لم يكن فى الاستطاعة ولا من المصلحة ان نشتبك مع الفرنسيين فى « فيلى » ولكن الأمر هنــا يختلف حيث تتجلى روح الدفاع الوطنى ويطفى حب موسكو مما يجعل الدفاع عنها ممكنا بل حيويا .

ثم اعلن رايه انه لابد من ان يدافع عن العاصـمة التاريخيـة المقدسـة .

وكان ماكرا .. فاذا فشلت العملية يقع عبء الفشـل على كوتزوف الذى سحب الجيش الى موسكو بغير معركة ، واذا نجحت يكون الفضل له (بنجسن) واذا لم تحدث المعركة يكون هو برىء من جـريمة ضـياع العاصـمة ، لانه ادى واجبه واعلن رايه فلم يؤخذ برايه .

وانقسـمت الآراء .. كان يؤيد بنجسـن كل من ارمولوف ودكتروف ورافكس .

اما بقيـة القـادة فكانوا ينظرون الى الامر الواقع ، وهى ان موسـكو بدات تغزى فعـلا وكان تفكيرهم فى طريقـة وطريق الانسحاب عن موسكو .

ونظر الجميع الى الرجل الصامت الذى كان يسـعل بشـدة ويرسل بعين واحدة نظرات قاسية حين لايعجبه كلام .. وذلك دون ان يفقد مظهر الثقة والكفاية .

وبدا كوتزوف يتكلم :

ان فكرة تحريك القوات الروسية من مواقعها الحالية القريبة من العدو ، لتشرع فى الهجوم يعتبر عملية خطـيرة محكوم عليهـا بالفشـل ، ولها سوابق عديدة فى تاريخ الحروب .. خذوا مثـلا معركة « فريد لاند » (١) . واظن ان الكونت بنجسن يذكرها جيدا وقد انتهت بالاخفاق لان القوات غيرت اماكنها وهى على مقربة من العدو .

---

(١) جرت هذه المعركة فى شرق بروسيا عام ١٨٠٧ وانتهت بانتصار نابليون على الجيش الروسى والبروسى . وكان قائد القوات الروسية فى هذه المعركة : الجنرال بنجسن .

يجب أن نكون مفهوما اننا سنخسر اذا شرعنا فى الهجوم .

ان الصبر والوقت هما اعظم المحاربين ، هما خيرة ابطالى .

ان التفاحة لم تنضج بعد ، ومن المؤلم ان تشرع فى قضم تفاحة غير ناضجه لانك لن تتلقى غير مرارتها وستصاب أسنانك بالمشقة ، ومعدتك بسوء الهضم اصبر حتى تنضج التفاحة .. وتسقط وحدها ..

اننا لا نبحث ايها السادة فى العاصمة التاريخية المقدسة ، ولكن المهمة التى دعوتكم اليها هى مهمة حربية .. هذه المهمة هى انقاذ روسيا .. وهل الافضل ان ننسحب عن موسكو وبغير معركة او ندخل المعركة مغامرين بمصير الجيش ومصير موسكو ؟ ..

هذه هى المشكلة التى اريد ان تناقشوها ..

واخيرا قال كوتزوف :

ايها السادة لقد عرفت وجهات نظركم .. بعضكم لايوافقنى ، ولكن باسم الثقة التى أودعنيها الامبراطور والشعب ، أصدر الأمر .. بالانسحاب ..

وانصرف الجنرالات ، والقى كوتزوف رأسه بين ساعديه المرتكنتين على طاولة الاجتماع وراح فى نوبة فكر هائلة .

صدر الأمر التاريخى الرهيب بالانسحاب عن موسكو .

وتراجعت عنها القوات الروسية ومعها الجرحى والاهالى .

وتركت مجموعات متناثرة من الجنود والفدائيين والأهالى يشنون حرب العصابات « الغوريلا » لتعطيل الفرنسيين وازعاجهم وتدمير معنوياتهم .

ودخل نابليون موسكو . لم يجد الجيش الروسى كما كان يتوقع . وانما وجد النار والدمار .

وقال له ضابط مخابراته : ان موسكو خالية مفتوحة ..

وذهل الامبراطور وصاح فيمن حوله ، الى « بالعربة » .

واستقل عربة القيادة ومعه اركان حربه ، وجرى بها هنا وهناك ..

موسكو خالية .. مهجورة .. اى قرار جنونى ؟ ثم اردف :

ان المسرحية لم تتم فصولا ؟ ..

وفى اول اكتوبر بعث نابليون رسالة مؤرخة فى موسكو الى كوتزوف .. يعرض عليه الصلح :

وجاء رد كوتزوف حاسما : لا .

وبدأ الجيش الكبير يشعر بخيبة الأمل ، كالسائر فى البيداء انهكته الرمال والعواصف وخدعه السراب .. واخيرا تحسم لقادته وجنوده اليأس والفزع ثم دوت نيران الجيش الروسى التى كانت مختزنة للساعة الحاسمة .

وبدأ التحول الخطير فى المعركة التاريخية .

ولوى نابليون عنان جواده .. واطرق راسه وبدأ التراجع .

ثم كانت ساعة فى ليلة حالكة وقد جاء احد الفرسان ينهب الارض ويصرع الثوانى والدقائق لكى يصل الى مقر القائد الكبير .. كوتزوف .. وكانت معه رسالة فيها كلمات قلائل . ايقظت الجنرال النوبتجى كما لو كانت دلو ماء انسكب على وجهه الصامت ودخل الجنرال النوبتجى والفارس يحملان اهم نبأ فى حياة كوتزوف .

بل اهم نبأ فى تاريخ تلك الحقبة من الزمان ...

نابليون ينسحب ؟ .

وكان كوتزوف غارقا فى ظلمة حجرته وراسه على كفه ، وعينه الوحيدة تخترق الفضاء ... فقد كان لا يعرف النوم ، ولا يخلع ثوبه العسكرى ، ولا يفرغ من التفكير والتدبير .

وما فرغ المتحدث من تبليغ رسالته حتى ارتمى كوتزوف على الارض ، وزحف الى محراب صلاته .. وقال :

ايه يارب .. ايها الخالق الاعظم الذى تسمع صلاتى .. انك انقذت روسيا ..

اشكرك يارب ...

القائد الألمانى :

المارشال روميل



« ان روميل ظاهرة غير عادية ،
وفلتة نادرة فى التاريخ العسكرى »

عندما فكرت فى الكتابة عن الجنرال فيلد مارشال اروين روميل كأحد النماذج المنفردة بالعبقرية العسكرية ، قفزت الى خاطرى آراء خصومه فيه ، وقد قيـــل : الحكم ما حكمت به الاعداء .. فالممت بما كتبه رجال العسكرية والسياسة فى المعسكر المضاد لالمانيا قبل ان اعيد قراءة كتب المؤيدين والمحايدين ، واستعرضت آراء الفيلد مارشـال ويفل ، والجنرال اوكنلك ، والخصم السـياسى الداهية سير ونستون تشرشل ، والمعقب الحربى النقادة كابتن ليدل هارت ، وغيرهم من الاعـلام ، فرايت فى ذلك ما يفيض عن الحاجة اذا قصدت الى وضع عشرات الصفحات تمجيدا لروميل واشادة بعبقريته العسكرية .

وقد انفرد روميل بكأس البطولة والشهرة بين قادة الحرب العالمية الثانية ، وكان اعظم قادتها بلا مراء رغم انه خرج من المعركة مهزوما . وهو فى ذلك يشبه نابليون وهانيبال وروبرت لى الذين هزموا فى معاركهم الحاسمة ولكن نصرهم التاريخ ، وخسروا الحرب ولكن كسبوا الشهرة والفخار .. ولم يحظ الغالبـون بشىء من شهرتهم وامجادهم .

فوق مستوى القـادة

كان روميل ، « فلتة » فهو لم يكن قائدا عاديا ، وقد وصفه خصمه العتيد الجنرال اوكنلك بقوله « ان روميل كان قائدا فوق مستوى القادة » ووصفه الكابتن ليدل هارت بقوله « لقـد كان روميل عبقرية عسكرية ولا يبلغ مبلغه قائد آخر » .

وكان الجنرال اوكنلك يكافح لتثبيت قلوب جنوده الذين روعهم اسم روميل وحرمهم النوم واخذ يصدر أوامره بمقـاومة الذعر

ودفع الرهبة التى اقترنت باسم روميل « ان هناك خطرا حقيقيا ، فصاحبنا روميل قد اصبح ساحرا لجنودنا ، يتحـــدثون عنه ويشغلون به ان روميل ليس انسانا فوق مستوى البشر ، وان كان بلا ريب ممتازا وقديرا .. اننى اناشدكم ان تستخدموا كل الوسائل لتبددوا هذه الأفكار التى استولت على عقول الجنود فجعلتهم ينظرون الي روميل على انه اكثر من قائد المانى » .

وقد سجل اوكنلك ـ كقائد وانسان ـ رايه التاريخى فى روميل فقال :

لقد احترمته لشجاعته ، اذ كان قادرا على عمل كل شيء ، وكانت حروبه تمتاز بضروب الشجاعة والفروسية التى تميزت بها العصور الوسطى ولم يعد لها اثر فى ايامنا ، وهذا ما جعله يكتسب احترام القادة البريطانيين وينال محبة اعدائه قبل اعوانه .

أول الطـــريق

ولد اورين روميل فى سنة ١٨٩١ ، واخذ طريقه الى المعسكر فى سن التاسعة عشر وأصبح ضابط مشاه فى سنة ١٩١٢ وعرف عنه ميله الى الضبط والربط وتدريب المستجدين وشغفه بالبحث فى التنظيمات العسكرية فى عمق وروية ، كما كان موضع تقدير زملائه باحترامه للتقاليد العسكرية وتميزه بالصفات الحسنة ، فلا تدخين ولا خمر ولا سهرات ولا نزوات .

وقد وصفت بعض المراجع « الملازم روميل » بانه كان شجاعا الى ابعد الحدود وانه كان « متحفزا للهجوم ولا يعرف التعب » وقد فاز بالصليب الحديدى فى وقعة عرضته فيها شجاعته لرصاص العدو ، فلما خرج من المستشفى بعد ثلاثة شهور تعرض بفصيلته لضغط كتيبة مشاه اطبقت عليه من كل ناحية ولكنه قاتلها ثم

اقلت منها بعملية انسحاب شاقة تقلد على اثرها نيشان الصليب الحديدى من الدرجة الأولى .

ولما نقل الملازم روميل الى كتيبة ورتبرج الجبلية حارب فى رومانيا وايطاليا حيث منح وسام الجدارة الالمانى — الذى يقابل صليب فيكتوريا — لما ابداه من براعة فى القيادة ، وحلق فيما اقدم عليه من الأعمال الحربية .

ومن الحوادث المشهورة فى ذلك الحين قيامه بعملية تجـــاه كابورتيو فى اكتوبر ١٩١٧ فلما تم له تحقيق الغرض كان قد مشى على قدميه خمسين سلعة متوالية وصعد سبعة آلاف قدم واسر مائة وخمسين ضابطا وتسعة الاف جندى وواحد وثمانين مدفعا .

واصبح اورين روميل يوزباشى فى سنة ١٩١٨ ثم صار معلما بمدرسة المشاه فى درسدن خلال عامى ٢٩ ، ٣٠ حيث عكف على وضـع كتـابه المشهور « هجوم المشاه » الذى يعتبر حتى اليوم مرجعا ممتازا فى تكتيكات المشاه الصغرى وخاصة وقد وضعه « استاذ فى فنه » .

قائد حرس هتلر

وقد اختير روميل قائدا لحرس هتلر ، وكان مطبوعا على الولاء مقدسا للتقاليد العسكرية فواتته الفرصة لدراسات عليا ، وخاصة فى فاتحة الحرب العالمية الثانية فكشف خطط الحرب الحديثة ومرت تحت عينيه جيوش المـانيا الجرارة فى غزو بولندا وادرك خصائص الحرب الحديثة واهمها التعاون بين قوات الجو والبر ، واهمية القوات المدرعة ، وخاصة اذا استخدمت فى حشود كبيرة ، كذلك ضرب مؤخرة العدو فلما عين قائدا للفرقة السابعة المدرعة ، او « فرقة الشبح » — كما اطلق عليها فيما بعد — كان قد ادرك

كل ما هو مطلوب منه ، واخذ يطبق نظرياته التكتيكية ويضع افكاره وملاحظاته موضع التنفيذ .

قيادة الفرقة المدرعة

دفع روميل فرقته المدرعة الى الميدان فاحرزت النصر فى معركة بعد اخرى ومن المأثور عنه غزوته الموفقة فى شربورج ، وعلى اثرها سلمت فرنسا .

وقد احصيت خسائر الفرقة السابعة المدرعة البنزر خلال معارك ستة اسابيع فاذا هى :

٦٨٢ قتيل ــ ١٦٤٦ جريح ــ ٢٩٠ مفقود ــ ٤٢ دبابة .

اما مغانمها فكانت :

٩٧٦٤٨ اسيرا ــ ٢٧٧ مدفع ميدان ــ ٦٤ مدفع دبابات ــ ٤٥٨ دبابة ــ وعربة مصفحة ــ ٤ آلاف لورى ــ ١٥٠٠ سيارة ــ ٢٠٠ عربة جر .

وكتب الى زوجته يقول :

« قامت الفرقة بهجوم على شربورج واستولت على قلاع منيعة رغم قوة الدفاع عنها . ولقد صادفت لحظات حرجة للغاية اذ كان العدو يفوقنا فى العدة والعدد نحو عشرين مرة او تزيد وكان لديهم فضلا عن ذلك بين عشرين وخمس وثلاثين حصنا مجهزا وبطاريات عديدة ، ومع هذا كله فقد استطعنا فى قوة وسرعة ان ننفذ امر الفوهرر الخاص بالاستيلاء على شربورج باسرع ما يمكن » .

فى شمال افريقيا

فى فبراير عام ١٩٤١ قطع روميل اجازته القصيرة حيث

استدعى لمقابلة الفيلد مارشال براوشتش الذى انهى اليه بالمنصب الجديد الذى وضعه فيه هتلر ، وهو « قائد قوات الفيلق الالمانى فى شمال أفريقيا » .

وكانت أحوال الايطاليين فى ليبيا تسير من سىء الى اسوأ ، فارسل هتلر فرقتين لمعاونتهم ، احداهما خفيفة والأخرى من فرق الباتزر ، وكانت آخر الأخبار من الميدان الافريقى تقول بأن المارشال ويفل قد استولى على بنغازى بعد أن دمر الفرقة المدرعة الايطالية واخذ يستعد لدخول طرابلس .

ولهذا كان اول ما تبادر لذهن روميل عند التقائه بالجنرال كيسلرنج ـ قائد القوات الجوية الألمانية فى صقلية ـ ان طلب اليه ضرب ميناء بنغازى فى الليل ثم مهاجمة القوات البريطانية ـ ومن عجب أن روميل علم أن الايطاليين لم يطلبوا قذف بنغازى بقنابل الطائرات لسبب خطير .. وهو أن عددا من الضباط الايطاليين والرجال ذوى الشأن يملكون بيوتا فيها ـ وقد استأذنت القيادة الجوية من قيادة هتلر ضرب بنغازى ، فجاءتها الموافقة فى الحال .. واندفعت الطائرات الألمانية تضرب بنغازى وقوات البريطانيين المتقدمة ، وتدك مواصلاتهم وخطوط تموينهم .

وفى يوم ١٢ فبراير هبطت طائرة روميل فى طرابلس ، بينما غادر المارشال جرزيانى قيادته .

وجد روميل متاعب اخرى فى انتظاره ، متاعب ليست من اعدائه ولكن من حلفائه فقد واجهته أخبار انسحاب الايطاليين وتسليمهم اسلحتهم ومؤنهم وهبوط معنوياتهم الى حد ان ضباطهم اخذوا فى اعداد حقائبهم املا فى العودة الى ايطاليا .

وقد فكر روميل بسرعة واصدر امره اليومى « لا خطوة بعد الآن الى الوراء » وقدر ان البريطانيين لا يستطيعوا التقدم مادامت

هناك مقاومة ، وفى فترة الانتظار الحرجة اخذ روميل يحشد قواته ويضع خططه ، ويوطد صلته بالقادة الايطاليين .

وبدا زحف قوات روميل فراى البريطانيين شيئا جديدا .. خطيرا وتقدمت الدبابات الألمانية تاخذ طريقها عجبا تظللها سحابة من الطائرات وظهرت علامات النصر .. وتحقق راى روميل « النصر للجانب الاقوى » .

وانسحب الانجليز بعد قتال عنيف فقدوا فيه الفى اسير بينهم ثلاثة من القادة العظام : اكنور ، ونيوم ، وجامبير .. ولم تفطن القيادة الانجليزية الى غرض روميل ولم يجل بتفكيرها انه يجرؤ على قطع هذه الصحراء الشاسعة مبتعدا عن قاعدته .. ففاجاتها اساليب روميل وبعثرت خططها وقلبت نظرياتها ، فكان الارتداد السريع ، واستطاع روميل ان يطوى الصحراء فى اسبوع واحد من بنغازى الى السلوم ..

بين شقى الرحى

عندما انتصر روميل فى شمال افريقيا لم يكن أكثر من عدوه عددا باعتراف تشرشل نفسه الذى صرح « ان القوات الانجليزية كانت متفوقة فى عدد الدبابات بنسبة ٧ : ٥ ومتفوقة ايضا فى المدافع بنسبة ٨ : ٥ ومتفوقة فى الجو .

وكان روميل يحارب بعيدا عن قاعدته فتعرضت مواصلاته لهجمات الطائرات البريطانية التى كانت مصدر خطر كبير فى الوقت الذى شغلت فيه الطائرات الألمانية بميادين أخرى .

ولم يلق روميل من حلفائه الايطاليين المعاونة الجادة فى الوقت الخطير الذى كانت تعانيه قواته وهى تكافح بشق الانفس لدفع العدو المتفوق فى كل شىء .

ولم تستطع القيادة الالمانية العليا أن تستمع الى رجوات روميل المتكررة فى معاونته ، اذ كان الميدان الروسى شغل القيادة الالمانية الشاغل ، وكان الموقف خطيرا فحجب المسرح الافريقى عن عيون المسئولين .

ثم وقع الحادث التاريخى الخطير وهو فتح الميدان الثانى فى شمال غرب افريقيا فى الوقت الذى بدات فيه معركة العلمين .. واصبح روميل بين شقى الرحى .

وفتح التاريخ احدى صفحاته الخالدة ليسجل لاحد القادة العظام فى جميع العصور ما يفعله فى مثل هذا الموقف الشاذ .

كان روميل يحارب فى عدة جبهات :

١ - القيادة العليا الالمانية التى لا تمده بحاجاته الحيوية .

٢ - القيادة الايطالية العاجزة عن معاونته .

٣ - القوات الجوية المعادية التى تدمر خطوط مواصلاته ومصادر تموينه .

٤ - التفوق العددى الهائل لخصومه فى الرجال والطائرات والاسلحة وكافة المعدات .

وكانت نتيجة معركة العلمين معروفة « سلفا » .. ولكن كان معروفا ايضا أن القوات الالمانية لن تتلقى هزيمة نهائية ويقضى عليها قضاء مبرما .

اما عن الشق الأول من هذه النتيجة ، فلم يكن فى وسع اى قائد فى الوجود منع الهزيمة واما عن الشق الثانى ، فقد استطاع القائد الفذ أن يمنع الدمار ويتفادى الكارثة ويمرق بجيشه فى الوقت المناسب وباقل خسائر ممكنة .

لقد كانت معركة ذات جانب واحـد .. فلما انهزمت قوات المحور كان التاريخ قد سجل ان روميل هو اعظم قائد فى الحـرب العالمية الثانية .

عزيزتى لو :

ان المعركة تشتد وطأتها علينا . ولقد دفعنا حشود العدو عن مواقعنا . اننى ابذل جهدا بالغا لانقاذ الجيش ولست ادرى هل أنجح فى ذلك ؟ قضيت الليل مستلقيا مفتوح العينين اعمل فكرى فى طريقة لانقاذ قواتى .. اننا نواجه اياما فى غاية السوء بل اسوأ ما يمكن ان يمر بانسان .

ان القتلى أسعد منا ، فقد انتهى كل شىء بالنسبة لهم .

اننى افكر فيك بكل حب وتقدير ، ومن يدرى ، فقد نلتقى مرة أخرى .

« روميل »

الرتب والنياشين

كان روميل فى جميع ادوار حياته جنديا لم يستهوه شىء غير الجندية ، ولم يعرف عن الجندية غير خصائصها وحدودها . فلم تكن عنده سوى بذل الجهد لتحقيق النصر او دفع الهزيمة ، ولم يخطر بباله قط ان الجندية مغنم فعزف عن مظاهرها وابهتها . واحتفظ بالهيبة والكرامة .

وقد خبر روميل الميدان مبكرا ، واحرز النصر كثيرا ، ونال الاوسمة والرتب والنياشين بلا رغبة منه او اهتمام ، حتى انه حين انعم عليه باعظم الرتب « فيلد مارشال » كان مشغولا عنها باحداث القتال فلم يغير علامات الكتف وظل على حاله بعلامة الجنرال حتى

قدم له المارشال كسلرنج علامة من علامات رتبته . وعندما استقبله هتلر فى برلين وسلمه عصا المارشالية بعث الى زوجته يقول :

(كنت افضل لو كان اعطانى فرقة اخرى بدلا من رتبة الفيلد مارشال هذه) .

المثـــل الاعلى

كان روميل يعتقد ان المثل هو خير معلم .

وكان يطلب من ضباطه أن يكونوا قدوة حسنة لجنودهم .

ومما يذكر له إنه كان لايترك مناسبة الا ويناشد فيها الضباط أن يعتنوا بأنفسهم فى الخاص والعام من الأمور .

ويتضح ذلك جليا من الخطاب الذى القاه ـ وهو قائد المدرسة الحربية ـ فى الخريجين . وقد جاء فيه :

- كن نموذجا لرجالك ، فى عملك ، وفى حياتك الخاصة .
- كن مرنا ورائقا ، وعلم معاونيك أن يكونوا كذلك .
- حاذر من النزق والحدة وانفلات الأعصاب وارتفاع الصوت .

كان شليفن يقول « ان القائد العام هو عقل الجيش » اما روميل فيقول : « ان الحرب الحديثة قد اتسع نطاقها ، وتعددت ميادين نشاطها ، وازدادت الاختصاصات مما يقتضى أن يكون هناك كثرة من الضباط ـ وخاصة فى مراكز الأركان حرب ـ لهم مثل صفات القائد العام واحاطته وعزيمته ـ لكى تعمل جميع الأدوات بنجاح سواء فى ميدان التكتيك أو ساحات الامداد والتموين .

وروميل صاحب نظريات حربية صدرت من عقل كبير وفكر مجرب ، فقد خرج من الحربين العالميتين بدروس عامة هامة ، منها :

١ ـ اهمية تعاون الطائرات والقوات البرية تعاونا يجعلهما قوة واحـدة .

٢ ـ اهمية هجوم القوات المدرعة بقوة متجمعة كبرى .

٣ ـ ضرورة التفكير السريع والانقضاض السريع .

٤ ـ وضع الخطط على أسس الواقعية لاتدخلها الاوهام .

٥ ـ ضرورة التدريب الجيد العملى الواقعى قبل المعركة .

٦ ـ اهمية الشدة والصبر والتفاؤل .

٧ ـ الجانب الذى يملك المدفع الاشد قوة يكون لديه السـلاح الغالب .

٨ ـ عدم التقيد بالروتين أو أقوال وخطط الآخرين .

ويبلغ روميل غاية القول عندما يجرى قلمه بالسهل الممتنع ، فيروى الحقيقة الحربية التاريخية :

ان الجانب الأقوى هو الذى يحرز النصر .

فهرس

مؤلفات السيد فرج

فى المعركة :

- رسالة الى الجندى العربى « طبعة ثانية »
- حتى ننتصر .. !
- جيشنا فى فلسطين « طبعة رابعة »
- انتصارات عربية خالدة
- القيادة والقادة العظام « طبعة رابعة »
- وجها لوجه مع اسرائيل
- معركة العلمين « طبعة ثانية »
- الدفاع عن الوطن
- هذه هى الحرب
- مع العسكريين
- حرب الصحراء المصرية
- فى شمال أفريقيا

فى الثقافة :

- اشتراكية الثقافة
- ثورة الثقافة الشعبية
- انتصارات القوى الشعبية
- الانتاج والثقافة
- المؤسسات العمالية فى عهد الثورة
- شوقى والمتنبى

فى الرياضة البدنية :

- الرياضة فى بلادنا
- أبطال مصر والعالم
- ابطال العالم فى الملاكمة
- كابتن مصر حسين حجازى « طبعة ثانية »
- التنش : محمود مختار
- بطل الأبطال خضر التونى « طبعة ثانية »

مسرحية : ساعة اخلاص
ترجمة : تيتو فى الميدان
قصة للسينما : شقيق الروح



الثمن ٥٠ قرشا

